نجيب محفوظ

شهر العسل



شهر العسل



الغلاف والتصميم

للفنان حلمى التونى

طبعة دار الشروق الأولى
٢٠٠٦

الطبعة الثانية
٢٠٠٧

٨ شارع سيبويه المصرى

مدينة نصر ـ القاهرة ـ مصر

تليفون: ٤٠٢٣٣٩٩

فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)

email: dar@shorouk.com

www.shorouk.com

نجيب محفوظ

شهر العسل

دار الشروق

المحتويـــات

شــهــر العــسل

تهلل وجهاهما بالرضا وهما يدخلان. وقفا تحت النجفة الصغيرة يلقيان نظرة شاملة على الحجرة. وقاسا بعين دقيقة المسافة بين الكنبة الرئيسية والصوان الجامع للراديو والتلفزيون. ونظرا إلى الفريجدير القائم فى الركن بشىء من الفتور إذ كانا يتمنيان لو اتسعت له حجرة السفرة. قال باسما وهو يختال فى بدلته الجديدة:

ـ مباركة عليك الشقة الجديدة يا حبيبتى.

ـ مباركة عليك يا حبيبى.

ـ يتجلى ذوق والدتك فى تنسيقها البديع.

ـ ولا تنس دور ذوقى فى ذلك.

فلثم خدها وهو يضحك ثم قال:

ـ شقة لقطة!

ـ حقيقة..

ـ ترى أين أم عبد الله؟

ـ لعلها فى المطبخ أو الحمام..

ـ ترينها يا عزيزتى أهلا للثقة؟

ـ كل الثقة، لم تفارق ماما مذ كانت فى العاشرة.

ـ ستقيم فى شقتنا أكثر منا، وستدير جميع شئونها. أما نحن فلن نهنأ بها إلا حين الراحة والنوم..

ـ ندر بين أمثالنا من الأزواج العاملين من ظفر بمدبرة بيت مثلها.

ـ أى بهجة لشقة جميلة كهذه بدون مدبرة؟

ـ هذه هى الحقيقة، هى فى ذات الوقت مشكلة، ولكن..

وجعلت تتشمم الهواء فى قلق وتتساءل:

ـ ألا تشم رائحة غريبة؟

ـ رائحة غريبة؟!

وراح يتشمم بدوره، ثم قال:

ـ أجل.. ثمة رائحة غريبة..

ـ رائحة طبيخ..

وقاما بجولة تفتيش فى الأركان، تحت المقاعد، تحت الكنبة، وصاح الشاب باستنكار:

ـ توجد حلة تحت الكنبة..

ـ حلة؟!

أخرجها الشاب بوجه متقزز وهو يتمتم:

ـ حلة طبيخ فى حجرة الجلوس!

ـ وهو طبيخ حامض، ما معنى ذلك؟!

ـ شىء لا يتصوره العقل..

وصفق بيديه بشدة ونرفزة. وصاحت الفتاة:

ـ أم عبد الله!

ترامى إليهما وقع أقدام ثقيلة. دخل رجل قصير بدين مصبوب فى كتلة قوية كأنه برميل. غليظ الرأس والوجه والعنق كأنه مصارع محترف، ومن عينيه الغائرتين تنبعث نظرة جامدة بليدة. وقف فى بنطلونه الترابى وقميصه الأسود وحذائه المطاط، ينظر إليهما

ببلادة وعدم اكتراث . صرخت فى عينيهما نظرة ذاهلة غير مصدقة . تبادلا نظرة سريعة ثم عادا للحملقة فى وجهه البليد . وسألته الفتاة :

ـ من أنت؟

لم يجب . كأنه لم يسمع . سأله الشاب بصوت رنان :

ـ من أنت؟

فنظر إلى الشاب مليا ، ثم تمتم بهدوء بارد :

ـ أنا ابن أم عبد الله . .

ـ ومن أذن لك بدخول الشقة؟

ـ استدعتنى لأحل محلها فى أثناء غيابها .

ـ أليست فى الداخل؟

ـ سافرت إلى طنطا لحضور مولد السيد .

ـ متى سافرت؟

ـ صباح اليوم . .

فقالت الفتاة باستياء :

ـ لكنها لم تستأذن منا ، بل ولم تخطرنا . .

فجعل ينظر ببلادة وعدم اكتراث حتى سأله الشاب :

ـ ومتى ترجع؟

ـ لا أدرى .

ـ وماذا كنت تفعل؟

ـ لا شىء . .

ـ ماذا تعرف من شئون المنزل؟

ـ لا شىء .

ـ ألك حرفة تتعيش منها؟
ـ كلا .
ـ وكيف تعيش؟
ـ آكل وأشرب وأنام .
فنفخ الشاب فى يأس ، ثم سأله :
ـ ولم استدعتك أمك إذا كنت لا تحسن شيئا؟
ـ لأحل محلها فى أثناء غيابها .
ـ ولكنها تقوم هنا بكل شىء .
ـ قالت لى ابق هنا حتى أرجع .
لوى الشاب شفتيه امتعاضا . أشار بحدة إلى الحلة ، وسأله :
ـ ألم تر هذه الحلة من قبل؟
فنظر الرجل إليها فى بلاهة وقال :
ـ لا أتذكر .
ـ ألم تأكل من الكرنب؟
ـ بلى أكلت . .
ـ فى هذه الحجرة ، أليس كذلك؟
ـ لا أتذكر .
ـ ثم دفعت بها تحت الكنبة؟
فقال فى ابتهاج طارئ :
ـ بحثنا عنها طويلا . .
فنفخ الشاب فى غيظ وقال :
ـ لا جدوى من الكلام ، على أى حال تفضل غير مطرود!
فاستدار ليرجع من حيث أتى ، ولكن الشاب استوقفه ثم أشار إلى

ردهة مفضية إلى الباب الخارجى، فمضى الرجل نحوها بشكل آلى، غاب قليلا ثم رجع وهو يقول:

ـ ذاك الباب يؤدى إلى الخارج!

ـ أعرف ذلك.

ـ أتطردنى؟

ـ لا حاجة بنا إليك.

ـ قالت لى ابق حتى أرجع.

ـ ولكنى صاحب الشقة!

ـ أنا لا أعرف إلا أمى!

فصاحت الفتاة:

ـ أتريد أن تبقى بالقوة؟

فقال بثقة:

ـ سأبقى حتى ترجع.

ـ ولكننا لا نريدك.

ـ سأبقى حتى ترجع.

فذهلت الفتاة ونظرت صوب زوجها. شعر الفتى بأنه مطالب بأداء واجب فوق احتماله. وبدا أمام الرجل كغصن طرى حيال جذع شجرة بلح. واحتدم غضبا فصاح بالرجل:

ـ اذهب فى الحال.

ـ قالت لى ابق حتى أرجع!

ـ اغرب عن وجهى بلا مناقشة.

ـ لن أذهب، اذهب أنت إذا شئت!

أعماه الغضب فانقض على الرجل ودفعه بكل قوته. لم يتأثر

الرجل أقل تأثر ودفعه بكتفه دفعة بسيطة فانقذف الشاب إلى أقصى الحجرة متعثرا فى طريقه بخوان فسقطا سويا. نهض بسرعة لاعنا، ولكنه كف عن تجربة قوته. واندفعت الفتاة نحو النافذة المطلة على الطريق ففتحتها على مصراعيها وراحت تصوت بأعلى صوتها مستغيثة. وإذا بأصوات ترتفع لاعنة فى غضب، وإذا بالطوب ينهال على النافذة ويمرق بعضه إلى داخل الحجرة حتى تنحت الفتاة والفتى فى ركن آمن وهما مذهولان.

تساءلت وهى ترتجف:

ـ ماذا جرى للناس؟

ـ يقذفوننا بالطوب بدلا من إغاثتنا!

والرجل الغليظ لم يسكت. تقدم خطوات فتناول الخوان المقلوب وجرى نحو النافذة فرمى به منها بأقصى قوته، ثم أغلق النافذة! صاح الشاب:

ـ ماذا فعلت؟

فعاد إلى موقفه وهو يقول:

ـ طيلة الوقت تبادلنا الضرب.

ـ الضرب؟

ـ وانتصرت عليهم دائما!

فسألته الفتاة بحنق:

ـ كيف جعلت من شقتى ميدان قتال؟

ـ الحق عليهم، كلما ظهرت فى نافذة بادرونى بمعاكساتهم، اضطررت إلى قذفهم بالأطباق فقذفونى بالطوب..

ـ لقد جعلت من أهل الطريق أعداء لنا!

ـ لا يهمك.

ـ ألا ترى أنك تتصرف فى الشقة كما لو كانت ملكك الخاص؟

ـ الحق عليهم كما قلت لك.

ـ إنك تبدد الأشياء الثمينة وتعرضنا للخراب.

ـ أهذا جزاء من يدافع عن شقتك؟

ـ يا سيدى تشكر، ما نريد منك إلا أن تذهب بسلام!

هز منكبيه العريضين ثم ذهب إلى الردهة المفضية إلى الباب الخارجى.. لكنه لم يلبث أن عاد فرفع الحلة فى هدوء ومضى بها إلى الداخل. همست الفتاة:

ـ النجدة!

انتقل الشاب إلى التليفون فرفع السماعة، جعل ينقر عليه، ثم أعادها غاضبا وهو يقول:

ـ حرارته مفقودة!

ـ رباه!

ـ لعله عبث به، ومن يدرى فلعله عبث بالراديو والتلفزيون أيضا..

ـ كارثة حلت بشقتنا الجديدة، ولكن لا بد من عمل شىء..

ـ فلنذهب سويا إلى نقطة الشرطة..

ـ قد ينتقم من الشقة فى غيابنا..

ـ لابد مما ليس منه بد..

مضيا معا نحو الباب الخارجى، ولكنهما رجعا وهو يقول:

ـ أغلق الباب بالمفتاح!

ومضى يفتش عن المفتاح حيث وضعه على ترابيزة صغيرة فلم يجده.. تمتم:

ـ ليس الوحش غبيا كما تصورت . .

ـ لقد سجننا .

ـ حتام نمضى فى السجن تحت رحمته؟

ـ ذلك لا يمكن أن يقع ولا فى الخيال!

وإذا بدفقة مروعة من أصوات خشنة مختلفة المصادر تنقذف من ناحية المطبخ . وقع أقدام، ارتطام بجدران، سقوط أوعية، تحطيم آنية، صيحات وعيد . وقبل أن يفيق الزوجان من الصدمة الجديدة اندفع الرجل الغليظ مشتبكا مع آخر فى مثل حجمه إلى الحجرة وهما يتصارعان . تصارعا بعنف ووحشية وكل منهما يحاول قهر الآخر . فمرة يقع هذا تحت الآخر ومرة العكس . حتى تمكن الرجل الغليظ من غرس الآخر تحته دون أن يدع له فرصة للإفلات أو الحركة، ثم هتف بصوت جذلان :

ـ فيفا فلا !

ونهض فنهض الآخر . تصافح الاثنان كما يتصافح متباريان عقب مبارة عادلة . وانتبها إلى الزوجين فجعلا ينظران إليهما ببلادة وبرود . وحل صمت ثقيل كالاختناق . ثم خرج الشاب من ذهوله فأشار إلى الرجل الجديد وسأل ابن المدبرة :

ـ من هذا؟

ـ صديق !

ـ أكان موجودا معك من قبل؟

ـ نعم . .

ـ هل علمت أمك بوجوده؟

ـ كلا . .

ـ وكيف تدعوه إلى شقة آخرين؟

ـ دعوته لأنى لا أحب الوحدة، ولنواصل تدريبنا . .

ـ أأنت رجل عاقل؟

ـ نحن نتصارع فى الموالد ولا غنى لنا عن التدريب المستمر . .

ـ لعلك توهمت أنك صاحب الشقة!

ـ أنا لا أحب الإقامة فى البيوت!

فقالت الفتاة:

ـ إذن غادر بيتنا مصحوبا بالسلامة!

ـ قالت لى ابق حتى أرجع . .

فقال الشاب:

ـ نحن على استعداد للذهاب فلم أغلقت الباب بالمفتاح؟

ـ حتى ترجع أمى من المولد . .

ـ ولكننا نريد أن نذهب . .

ـ إلى أين؟

ـ يا له من سؤال، ألسنا أحرارا؟!

ـ من أدرانى أنكما صاحبا الشقة الحقيقيان؟

ـ أيداخلك شك فى ذلك؟

ـ يجب أن تبقيا معنا حتى ترجع أمى من مولد السيد.

فعض الشاب على أسنانه من الغيظ وقال:

ـ على الأقل يجب أن تلتزم بالنظام!

فأشار الرجل الغليظ إلى زميله قائلا:

ـ أراد أن يجرب قوته معى وقد رأيت النتيجة بنفسك!

ـ حسبكما ما كان من ضجيج وتخريب.

ـ لن يأتيك من ناحيتنا بعد ذلك إلا الطرب!

ـ أريد الهدوء الشامل الكامل . .

ـ ألا تحب الغناء والرقص؟

ـ الغناء والرقص؟ !

ـ معنا فى المطبخ راقصة وبعض أفراد الجوقة !

فصاح الزوجان معا :

ـ ماذا تقول؟ !

ـ إنهم من الزملاء الموثوق بهم . .

ـ لقد جعلت من الشقة ساحة مولد !

ـ لم تعقدان الأمور بلا سبب؟

ـ كل ذلك وتقول بلا سبب؟ !

ـ ما كنت أتصور وجود ناس يكرهون الناس والطرب بهذه القوة !

ورفع منكبيه العريضين استهانة ، ثم تأبط ذراع صاحبه ، ومضى به إلى الداخل . وجعلا يتبادلان النظر فى غضب ويأس حتى ترامى إليهما دق دف وعزف مزمار وإيقاع رقص ، وما لبثت الحناجر الخشنة أن غنت بغرابة :

يا زرمباحه يا زرمباحه خواتمك ستة وقداحه

هتفت الفتاة :

ـ سأجن إن لم أكن جننت بالفعل .

ومضى الشاب نحو النافذة بتصميم ، فقالت له محذرة :

ـ الطوب !

ـ لعلهم ذهبوا . .

ثم وهو يمسك بمقبض الضلفة :

ـ علينا أن نوصل صوتنا إلى الناس !

ولكن ما كادت الضلفة تتحرك حتى انهال الطوب عليهما كالرصاص. أغلقها مرة أخرى وهو يسب ويلعن. وتساءل فيما يشبه التنهد:

ـ غلبنا على أمرنا؟

فتمتمت:

ـ إنه كابوس قاتل..

ـ ولكن لابد أن يوجد مخرج.

ـ أجل، يجب أن يوجد مخرج.

ـ ولكن ما هو؟

وتفكر قليلا ثم تساءل:

ـ لنسأل أنفسنا ماذا نريد؟

ـ أظننا جئنا ونحن نحلم بقضاء شهر عسل سعيد!

ـ ولكن عاقنا عن ذلك وجود أولئك الشياطين.

ـ فعلينا أن نتخلص منهم.

ـ طيب، فلنفكر كيف يمكن التخلص منهم؟

ـ الباب مغلق، التليفون معطل، النافذة ينهال عليها الطوب.

ـ إذن فلا مفر من الاعتماد على أنفسنا!

ـ ولكننا دونهم فى القوة بما لا يقاس!

ـ ولكن هنالك الحيلة.

ـ أجل.. الحيلة.

ـ هل يسعنا حبسهم فى المطبخ؟

ـ يلزمنا معاينة المكان هنالك.

ـ سأذهب لصنع فنجال قهوة..

ودون تردد غادر الحجرة. ثم رجع بالقهوة، فسألته بلهفة:

ـ ماذا وجدت؟

فقال بضيق:

ـ باب المطبخ مفتوح والزمار جالس على الأرض مسند الظهر إليه، ولكن لم يمت الأمل.

ـ حقًا؟

ـ اختلست مفتاح المطبخ من فوق الرف.

ـ ألم تعثر على مفتاح الشقة؟

ـ ليس الرجل بالغباء الذى نتصوره، ولكنهم...

ـ ولكنهم؟

ـ يجرعون النبيذ بإفراط!

ـ ننتظر حتى يفقدوا الوعى؟

ـ أجل..

ـ لكنه سلاح ذو حدين!

ـ أجل، قد يزدادون جنونا، ولكن إذا غلبهم النوم فسوف يتساوون بالأموات.

ـ علينا أن ننتظر الليل.

ـ وليس الليل ببعيد!

تنهدت فى ضيق شديد متسائلة:

ـ متى ترجع أم عبد الله؟

ـ ذاك يتوقف على انتهاء المولد.

ـ ألديك فكرة عن تاريخ الليلة الكبيرة؟

ـ لا فكرة عندى عن المولد.

راحت الفتاة تذرع الحجرة محنية الرأس تحت هم ثقيل. حانت منها التفاتة إلى ما وراء الفريجدير فشد بصرها شيء ما. اقتربت منه ممعنة النظر، ثم قالت باستغراب:

ـ أرفف الفريجدير مخلوعة ومطروحة أرضا وراءه!

وانتقلت إلى باب الفريجدير فجذبته. وإذا بكتلة بشرية تندلق من داخله منكفئة على وجهها فوق الأرض.

صرخت الفتاة بجنون وهي تترنح. وثب الشاب إليها فتلقاها بين ذراعيه. تفحص الكتلة المطروحة بذهول، انحنى فوقها حتى رأى الوجه، ثم هتف:

ـ أم عبد الله!

ـ أجلس الفتاة على مقعد ورجع يفحص المرأة ويجسها، ثم تمتم بذهول:

ـ جثة هامدة!

واقتحم الحجرة الرجل الغليظ وجوقته وهو يقول بنبرة انتقاد:

ـ ألا تكفان عن الضوضاء؟

وتابع عينيهما ببصره حتى استقر على الجثة المنكفئة فتساءل:

ـ ما هذا؟

ولما لم يسمع جوابا صاح بغضب مخاطبا الشاب:

ـ أجب!

فقال الشاب بغضب كظيم:

ـ إنها جثة..

ـ جثة؟!

ـ نعم.

ـ أهى شقة أم مقبرة؟
ـ كانت شقة فأصبحت مقبرة.
ـ أين وجدتها؟
ـ فى الفريجدير.
فقال المصارع الآخر ببلاهة:
ـ إنهما يتغذيان على لحوم البشر.
فقال الشاب بحدة:
ـ لقد قتلت ثم دفنت فى الفريجدير.
فسأله الرجل الغليظ وعيناه تلتمعان بالسكر:
ـ وماذا حملك على قتلها؟
ـ لقد قتلت من قبل وصولنا إلى شقتنا.
ـ فمن الذى قتلها فى رأيك؟
ـ دعنى أسألك أنت فقد كنت قابعا هنا من قبل أن نحضر.
فالتفت الرجل إلى أفراد جوقته وسألهم:
ـ ما رأيكم فى مكابرة هذا الرجل؟
فقال الزمار:
ـ يقتل القتيل ويسأل عن قاتله..
وقال الطبال:
ـ إنه مجنون، لابد أن يكون مجنونا من يرتكب جريمة كهذه.
وقالت الراقصة:
ـ ودفنها فى الفريجدير على أمل أن تتحول إلى ديك رومى!
فقال الشاب مخاطبا الرجل الغليظ:
ـ انظر إلى وجه الجثة.

ـ لا تهمني معرفته .

ـ إنها جثة أمك !

فضجت الجوقة بالضحك ، فصاح الشاب :

ـ إنها جثة أم عبد الله .

فقال الرجل الغليظ بصوت ملتو :

ـ أمي ذهبت إلى مولد السيد !

فأشار الشاب إلى الجثة وسأله في هياج :

ـ أليست هذه بأمك ؟

قالت الراقصة :

ـ كانت أمه يا مجرم . .

وقال الزمار :

ـ أمه ذهبت إلى مولد السيد .

وقال الطبال :

ـ إنه يدعى الجنون ليفلت من العقاب .

وصاح الرجل الغليظ :

ـ كيف تنبش القبر لتعبث بالجثث ؟ !

فهتف الشاب :

ـ لن تفلتوا من يد العدالة .

فقال الزمار :

ـ تقتل مدبرة بيتك ، يا لك من وغد خسيس !

وقالت الراقصة :

ـ قتلها كيلا يدفع لها أجرها .

وقال له الرجل الغليظ :

ـ الويل لك أيها المجرم .

فصاح الشاب متحديا :

ـ أهذا ظنكم حقّا؟ . . إذن فاستدعوا الشرطة !

فضجوا بالضحك ، وقال الرجل الغليظ :

ـ نحن الشرطة ونحن القضاة . .

فقالت الراقصة :

ـ فلتقدمه إلى المحاكمة . .

فقال الرجل الغليظ :

ـ بعد أن نفرغ مما كنا فيه .

وتعالى هتافهم فى حبور ، ثم غادروا الحجرة وراء الرجل . أغمض الشاب عينيه إعياء . تجنب النظر نحو عروسه المنطرحة فوق المقعد . رفع الجثة من الأرض فأرقدها فوق الكنبة وغطى وجهها بخمار كان معقودا حول رقبتها . انتقل إلى فتاته متمتما :

ـ كيف حالك؟

فقالت بصوت ضعيف :

ـ سيقضون علينا قبل أن نقضى عليهم .

ـ من العسير أن يتخيل إنسان ماذا تكون خطوتهم التالية فهم لا يخضعون لمنطق .

ـ علينا أن نجد حلا سريعا .

ـ وأن نتوقع ما يخطر بالبال وما لا يخطر .

ـ لن يتركونا أحياء .

فقال محتدما بالغضب :

ـ إذا لم يكن من الموت بد!

فهمست :

ـ هذا جميل، ولكننا نفضل ألا نموت.

ـ ولا أحد يريد أن يموت، من رأيى أن تستريحى قليلا فى حجرة النوم.

ـ وأنت؟

ـ لا أكف عن التفكير، وأردد فى نفسى بلا انقطاع : إذا لم يكن من الموت بد!

ـ هل يحاكمونك حقّا؟

ـ لن يتورعوا عن شىء.

ـ إنه الكابوس.

ـ وربما قتلونى كما قتلوا المرأة الطيبة.

ـ ترى أهى أمه حقّا؟

ـ لن يغير من الأمر شيئا.

فقالت بإصرار :

ـ يجب ألا نموت كالأغنام.

ـ حتى الموت، يجب أن ندافع عن أنفسنا حتى الموت، وأن ندخر لهم ضربة مذهلة إن أمكن.

ـ أريد أن أفعل شيئا ذا بال أكثر من مجرد انتظار نتيجة معركة.

ـ فكرى، فكرى لحسابك، نحن فى موقف لا يجوز لأحدنا فيه أن يدعى وصاية على آخر.

ـ أعترف لك بأننى أتغلب على الخوف بقوة لم تكن متوقعة.

ـ الموقف أكبر من الخوف.

ـ هذا حق.

ـ والحرص على الحياة خليق بأن يضيع الحياة .
ـ قول جميل .
ـ يجب أن تكون لنا القوة لتنفيذه، هذه هى مشكلة الأقوال الجميلة .
ـ ألديك خطة جديدة ؟
ـ لا أكف عن التفكير .
ـ و أنا أيضا .
ـ المهم قوة العزيمة إذا وفقنا إلى خطة .
ـ مهما يكن من عواقبها . .
وهى تتنهد :
ـ كنت أحلم بشهر عسل بديع .
ـ انبذى الأحلام التى تضعف الهمم .
ـ طيب .
ـ استريحى قليلا فى حجرة النوم .
ـ أخشى أن يلاحظوا اختفائى إذا قدموا .
ـ إنهم سكارى وهم يقصدوننى أولا .
قامت . قبّلته . مضت إلى حجرة النوم .
ومضت فترة قصيرة ثم دخل الرجل وجوقته . لمعت أعينهم بوهج الخمر وشعت أساريرهم شرا .
وقفوا حيال الشاب على هيئة نصف دائرة مركزها الرجل الغليظ . أشار الرجل إلى الجثة وسأل :
ـ من قتل هذه المرأة؟
فأجابت الجوقة فى نفس واحد :

ـ أنت يا معلم!

ضحك وضحكوا. ثم سأل:

ـ بم تحكمون عليّ؟

فأجابوا:

ـ بالسلامة.

فضحك وضحكوا. ثم سأل:

ـ من الذى انتهك حرمة الجثة؟

فأشاروا إلى الشاب وقالوا:

ـ هذا المجرم.

ـ بم تحكمون عليه؟

ـ بالإعدام.

فرمى الشاب بنظرة وسأله:

ـ هل لديك ما تدافع به عن نفسك؟

فلم يجب. نقل بصره بين الجمع بسرعة وتحفز وانتباه. وتوثبت الجوقة للانقضاض لدى أول إشارة.

عند ذاك دوت صرخة فظيعة فى حجرة النوم، اندفعت الفتاة إلى الحجرة وهى تصيح:

ـ رجل فى صوان الملابس!

وهتف كثيرون فى دهشة:

ـ رجل!

وظهر الرجل فى مدخل الحجرة. عملاق، عملاق ينطق وجهه البرنزى بالقوة والتحدى والاستهتار. تبادلوا نظرات ذاهلة، وغاضبة، وتأهبوا للعواقب.. لم يبد فى وجه القادم الجديد أى ارتباك ولا خوف. بل تساءل بصوت أجش:

ـ من أنتم؟ . . وماذا جاء بكم إلى هنا؟
فسأله الشاب بدوره :
ـ من أنت؟ وماذا جاء بك إلى هنا؟
أجاب العملاق ببساطة :
ـ إنى فى بيتى!
ـ بيتك! . . لكنه بيتى، وتحت يدى ما يثبت ذلك .
ـ لا أحب الهذر، إنه بيتى وكفى .
فقال الرجل الغليظ بحقد :
ـ دجال، أنت لص منازل حقير، سأتذكر فورا متى رأيتك أول مرة . .
ـ صه أيها البهلوان وإلا حطمت أضلعك!
ـ أنت تقول ذلك يا لص المنازل؟
ـ مصارع موالد زائف، المصارعة الحقيقية شىء آخر، إنى أعرفكم أيها المهرجون .
فقال له الشاب :
ـ هذا بيتى، وأنت لص كالآخرين .
ـ أنت تهذى .
ـ سيحكم بيننا القانون .
ـ سأقذف بك من النافذة، هذا هو القانون الذى أعترف به .
فسألته الفتاة :
ـ إذا كنت صاحب البيت كما تزعم فلم أخفيت نفسك فى صوان الملابس؟
ـ أنا حر فى بيتى، أرقد حيث يطيب لى .

ـ لا أحد يرقد فى صوان الملابس .

ـ إنه خلوتى المفضلة ولست مسئولا أمام أحد .

فقال الرجل الغليظ :

ـ أنت لص ، لص منازل حقير ، إنى أعرفك .

ـ اخرس أيها المهرج الحقير .

فقال الشاب :

ـ لندع الشرطة ولنترك لها الفصل فى الأمر .

فقال العملاق بوضوح :

ـ لا أحب الشرطة .

فقال الشاب غاضبا :

ـ فأنت لص كما قال هذا القاتل .

ـ القاتل؟ ! هل قتل أحدا هذا المهرج؟

ـ ها هى ذى جثة ضحيته !

فمد العملاق بصره إلى الجثة وقال بدهشة :

ـ أى تقدم أحرزته يا مهرج الموالد؟ !

ـ هى أمه أيضا !

ـ قاتل أمه ! . . هذا شرف لا تستحقه أيها المهرج ، من أين جاءك هذا الشرف؟

فقال الرجل الغليظ بحنق :

ـ يا لص المنازل ، احذر إثارة الزلازل !

فقال العملاق ساخرا :

ـ أهلا بالزلازل ، هى دواء موصوف لصحتى !

فى أثناء ذلك مضت الفتاة تتسلل ناحية المطبخ . . خطوة فخطوة

وعين الفتى تلحظها بقلق. وغطى على تحركاتها بتوجيه الخطاب إلى الجميع قائلا:

ـ ما أحوجنا إلى تحكيم نزيه، فهذا رجل يتوهم أنه قاض وهو فى الحقيقة قاتل، وذاك رجل آخر يزعم أنه صاحب البيت وتؤكدون أنه لص منازل حقير، وأنا أقول إننى صاحب البيت على حين يتهمنى هؤلاء بأننى قاتل المرأة الطيبة. فما المخرج من هذه الفوضى؟ لا مفر من أن نستدعى الشرطة!

فقال العملاق باستهانة:

ـ سيقذف بنا اقتراحك إلى قعر بئر عميقة.

ـ بل ليس أسهل من استدعاء الشرطة.

ـ ولكن المشاكل تبدأ بمجيئها، ستحرر لنا محضرا طويلا عريضا لا بداية له ولا نهاية، ثم تأمر بتحويلنا إلى النيابة، ويستمر التحقيق أياما وأسابيع، من القاتل؟.. من اللص؟.. من صاحب الشقة؟ ثم تأمر بتحويلنا إلى المحكمة، ويتقاذفنا الاتهام والدفاع حتى نتفق، ونؤجل من جلسة إلى أخرى، ولن ينطق بالحكم حتى يكون أول إنسان قد هبط فوق سطح القمر، وفى أثناء ذلك تغلق الشقة وتختم بالشمع الأحمر فتصير نهبا للحشرات والأشباح، لا تنس هذه السلسلة المعقدة التى لا نهاية لها.

ـ ولكنها حاسمة وعادلة!

ـ أيسر من ذلك أن تنقض على خصمك فتحطم جدران بطنه بلكمة صادقة فيعترف لك بحقك، ثم تتصافحان ويذهب كلاكما إلى حال سبيله.

وتقدمت الراقصة خطوة وقالت:

ـ فيم تتناقشون والعقد محلولة بنفسها لا تحتاج إلى حلال؟

فقال العملاق ساخرا:

ـ لنستمع إلى الغازية!

ولكنها قالت بهدوء دون تأثر أو غضب:

ـ لا حاجة بنا إلى البحث عن القاتل فقد حُوكم وقُضى عليه بالإعدام!

فقال الزمار بحماس:

ـ وبإعدامه يبطل ادعاؤه ملكية الشقة.

وعادت الراقصة تواصل حديثها قائلة:

ـ وتصبح الشقة ملكا لنا جميعا على قدم المساواة!

فابتسم العملاق لأول مرة، ولكنه قال بعجرفة:

ـ لا أقبل المساواة!

فقال الرجل الغليظ بعجرفة مماثلة:

ـ وأنا أرفضها!

فقال العملاق:

ـ ليكن نصيب كل بحسب قوته.

فقال الرجل الغليظ:

ـ ليكن..

فقالت الراقصة:

ـ الخير بين أيدينا أكثر من أن يحصى!

أحاطت الجوقة بالرجل الغليظ تحاول إقناعه. وتنحت الراقصة بالعملاق جانبا لتلطف من صلابته. أما الزوجة فقد رجعت خفية إلى موقف زوجها. وقفت لصقه وهى تدس شيئا فى جيبه. ووراحا يراقبان الحشد الذى يتآمر على قتلهما ونهب بيتهما بغرابة. غير أن طارئا سرى فى الجو بخفة كالهمس، رائحة ما، وشىء كالزفير أو

الهسيس. وتفشى فى دفقات كالفحيح مفجرا رائحة مميزة كالدخان. وانتشرت طقطقة مجنونة بسرعة غير متوقعة فاقتحمت على المتآمرين خلوتهم. جذبت منهم بعنف أعينا محملقة نحو ردهة المطبخ. وما لبثت أن غابت فى سحابات من دخان تسبح فيها عناقيد من الشرر، وتلاطمت صرخاتهم فى غضب:

ـ النار!

ـ حريقة فى المطبخ!

ـ الشقة فى خطر.

ـ كل شىء فى خطر.

ـ فلنطفئها بأى ثمن.

ودبت حركة وحشية. ولكنها لم تكن إلا صدى خفيفا لحركة رعدية أطبقت على الطريق فى الخارج. ارتفع الصياح. دق جرس الباب بلا انقطاع. انهال دق عنيف على الباب الخارجى. وهرع المتآمرون إلى ردهة المطبخ، غير أن العملاق مال نحو الشاب فجأة وهو يصيح:

ـ لن أتركك حرا.

انقض على الشاب. وإذا بالشاب يفاجئه بضربة من سكينة استلها من جيبه فاستقرت فى القلب، وتهاوى على أثرها العملاق دون أن ينبس، لم تغب الواقعة عن الرجل الغليظ فوثب على الشاب وهو يصيح:

ـ خيانة!

وفى الحال صرعه وبرك فوقه، ولكن الزوجة استلت بدورها سكينة مدسوسة فى جيب معطفها وبكل قوتها غرزتها فى عنق الرجل.

وتتابعت الأحداث فى سرعة البرق. تحطم الباب الخارجى. اندفع منه رجال متهورون. ورن جرس المطافئ. وصفارة النجدة. وارتطمت فى الشقة الجديدة قوى المقاومة بقوى الغدر فانخرطت فى معركة شاملة تحت ألسنة اللهب المندفع والماء المتدفق وقطع الأثاث المتناثرة.

* * *

وفى المساء نشر الهدوء ألويته فوق الحى جميعه. خلت الشقة من الغرباء ولم يبق بها قائم، إن هى إلا أشلاء مقاعد وحطام أجهزة ونفايات مفارش. جلس الزوجان على أريكة تحت نجفة صغيرة لم ينج من مصابيحها إلا شمعة واحدة شعت ضوءا شاحبا. لم يخل وجهاهما ورأساهما من كدمات وتسلخات وأورام خفيفة. أما ملابسهما فقد تمزقت فى أكثر من موضع وتلوثت بالسناج. جعلا ينظران فيما حولهما بوجوم ويتبادلان النظر. وفجأة أغرقا فى ضحك هستيرى ركبهما طويلا حتى رجعا إلى الصمت والوجوم. ورغم كل شىء فإن القلب لم يخل من ارتياح خفى، وامتنان. وتردد صوته فى إعياء:

ـ ضاع كل شىء.

فربتت كتفه بحنان وقالت:

ـ نجونا بأعجوبة!

فهز رأسه فى تسليم وتمتم:

ـ أجل نجونا بأعجوبة.

ثم بنبرة وشت بنشوة طارئة:

ـ لم يضع شىء لا يمكن تعويضه.

العالم الآخر

رقصت الفتاة على عزف جوقة صغيرة فى القهوة الوحيدة بالدرب. جميع المقاعد خالية فى تلك الساعة من الأصيل عدا مقعدين أمام القهوة احتلت المعلمة أحدهما وجلس على الآخر تابع شاب لها. تبدى بلاط الدرب الضيق نظيفا لم تطأه قدم بعد. أما الشمس فتوارت وراء البيوت القديمة طارحة آخر دفقة من شعاعها على أسوار الأسطح المتآكلة. وعلى جانبى الدرب ـ أمام الأبواب المفتوحة ـ جلست نساء على كراسى خيزران فى أزياء متهتكة وزينة فاقعة، يدخن، ويتبادلن الأحاديث. قالت المعلمة لتابعها الشاب:

ـ حياتنا خنوع واستسلام ودفع إتاوات، حتى متى؟

فقال التابع، وهو متين البنيان فى العشرين من عمره:

ـ حتى تتهيأ الفرصة للقضاء عليه!

ـ متى تتهيأ الفرصة؟

ـ كل شىء بأوانه، وإلا دمرنا تدميرا لا يبقى ولا يذر.

ـ مهنة كالقطران، ادفع ادفع، للطبيب.. للشرطى.. للضابط.. وكله كوم وشيخ البلطجية كوم وحده، هل قضى علينا أن نشقى بمهنة جزاؤها النار وبئس القرار لنبدد مكاسبنا على كل من هب ودب؟!

ـ لكل عمل متاعبه.

ـ ما أكثر الذين يفوزون باللقمة الهنية بلا قرف!

ـ الصبر طيب يا معلمة . .

فبصقت المعلمة بازدراء وقالت :

ـ الليلة موسم ، وعلينا أن نحقق أكبر ربح بالإضافة إلى نفقات الحكومة والبلطجية!

ـ ستكون ليلة مباركة . .

ـ همتك ، فتح عينك ، خذ بالك من النسوان . .

ـ اطمئنى يا معلمة ، ولكن الرجل المرعب سيمر آخر الليل ليأخذ الإتاوة . .

ثم وهو يشير ناحية الفتاة التى ترقص داخل القهوة :

ـ وليجر وراءه أجمل بنت عندنا!

فتنهدت المعلمة قائلة :

ـ حسبى الله ، ولكن أمامها ليل طويل قبل ذلك تستطيع أن تحول ساعاته إلى ذهب!

وقام التابع فدخل القهوة . أشار إلى الجوقة فكفت عن العزف . أخذ الراقصة من ذراعها وانتحى بها جانبا بعيدا عن الأنظار . وفى تلك اللحظة ظهر فى مدخل الدرب شاب يافع يدل مظهره على أنه تلميذ أو طالب . ألقى على الدرب نظرة استغراب ، ونقل عينيه بين النسوة فى دهشة واضحة . تردد مليا ، استعدت كل امرأة لاستقباله بحركة ترحيب ، لكنه ألقى ببصره فيما أمامه بلا فهم أو مبالاة وتقدم نحو القهوة . حيا المعلمة برفع يده إلى جبينه ثم سألها بأدب :

ـ أين صاحب القهوة؟

سألته بدورها وهى تتفحصه بإمعان :

ـ ماذا تريد منه؟

ـ أريده لأمر مهم.

فأشارت إلى نفسها وهى تقول:

ـ محسوبتك صاحبة القهوة.

تساءل بدهشة:

ـ حضرتك؟!

ـ حضرتى!

وضحكت ضحكة عالية ثم قالت:

ـ بشرى لنا، السماء تمطر أدبا!

ـ لا مؤاخذة، أرجو ألا أكون أخطأت.

ـ لا سمح الله ولكن خيل إلىّ بادئ الأمر أنك زبون نهارى!

ـ زبون نهارى؟!

ـ ما علينا، ماذا تريد من صاحبة القهوة؟

فقال الشاب بجدية:

ـ يجب أن أقدم نفسى أولا، أنا مندوب لجنة الطلبة.

ـ لجنة الطلبة؟

ـ اللجنة العامة للطلبة.

فتساءلت مازحة:

ـ ولم لَم تجئ معك باللجنة لتقضى سهرة الموسم عندنا؟

فقال بجدية مضاعفة:

ـ نحن مندوبى اللجنة انتشرنا فى أنحاء القطر للدعوة إلى قرار خطير!

ـ قرار خطير؟

ـ تعلمين حضرتك أن غدا هو الذكرى الأسيفة لمرور عام على إلغاء دستور الأمة؟

فقالت وهى ما زالت تتفحصه بذهول:

ـ حضرتى لم تعلم.

ـ دستور الأمة!

ـ دستور يا أسيادى.

ـ الموضوع لا يحتمل المزاح.

ـ أليس المزاح أفضل من الجد؟

ـ الموقف خطير والضحايا يتساقطون كل يوم بالعشرات!

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله.

ـ والوطن يطالبنا...

فقاطعته:

ـ ما الذى جاء بك إلى هذا الدرب؟

ـ وقع شارع كلوت بك فى قرعتى، مررت على المحال والدكاكين والمقاهى فوجدت استجابة شاملة، سيغلقون الأبواب جميعا بلا استثناء غدا، وأنا عائد من مهمتى تنبهت إلى هذه العطفة التى لم ألحظها فى مرورى الأول..

ـ ألم تدخلها من قبل؟

ـ كلا يا سيدتى.

ـ لم لَم توجه دعوتك إلى الفتيات الجالسات أمام الأبواب؟

ـ عَلى فكرة، لمَ يجلسن بهذه الصورة المنافية لتقاليدنا؟

ـ اجلس، اجلَس واشرب شيئا، أشهد الله أنك أظرف شاب قابلته فى حياتى!

ـ لا وقت عندى، أشكرك وأعتذر، على أن أمر على بقية المحال فى الدرب.
ـ لا يوجد فيها إلا قهوتى.
ـ حقًا؟ إذن فقد انتهت مهمتى، ولكنك لم تعدينى بشىء!
ـ أى وعد؟
ـ بخصوص الإضراب العام المزمع تنفيذه غدا.
ـ ماذا تريد؟
ـ أن تغلقى القهوة غدا.
ـ سبحان الله، لمَ؟
ـ احتجاجا على إلغاء الدستور.
فضحكت المعلمة وقالت:
ـ عشنا وشفنا!
ـ الجميع استجاب لنداء الوطنية.
ـ عشنا وشفنا!
ـ لم يعترض أحد، حتى الخواجات!
فغمزت له بعينها وسألته متهكمة:
ـ أأنت وحيد مامتك؟
فقال وهو يدارى استياءه:
ـ لا وقت للمزاح، ولا للخروج على الإجماع.
فهتفت المعلمة بحدة لأول مرة:
ـ يا دافع البلاء يا رب، لا يكفينا رجال الحكومة والبلطجية حتى ينضم إليهم مندوب الطلبة والدستور!
ـ الزعيم نفسه سيطوف بأنحاء القاهرة ليتفقد حال الإضراب بنفسه!

ـ الزعيم سيشرفنا هنا؟

ـ بشخصه!

ـ أهلا به وسهلا، سنفتح له الأبواب بالمجان!

ـ موقفك غير مفهوم يا هانم!

ـ هانم!

وأغرقت فى الضحك.

ـ موقفك غير مفهوم!

ـ أقسم برأس أمى أن الإنجليز سيخرجون من مصر قبل أن تفهم أنت أى شىء.

فقال الشاب بنبرة لم تخل من تهديد:

ـ أخشى أن يتعرض الخارجون عن الإجماع لغضب الشعب!

ـ نحن نخدم الشعب من قبل أن تولد لجنة الطلبة.

ـ حتى النساء سيشتركن فى مظاهرات الغد.

أجالت المعلمة عينيها بين النساء القابعات أمام البيوت وصاحت بهن:

ـ اهتفن معى.. يحيا الإضراب.

وهتف أكثر من صوت:

ـ يحيا الإضراب.

ثم ضج الدرب بالضحك. وإذا بالتابع يرجع على صوت الهتاف. ولما رأى الشاب ارتسمت الدهشة فى أساريره. وتنبه الشاب إليه فبادله دهشة بدهشة. هرول كل منهما نحو صاحبه وتعانقا بحرارة. وقال الشاب:

ـ لا أصدق عينى..

ـ ماذا جاء بك إلى هنا؟

وعند ذاك سألته المعلمة :

ـ تعرفه؟

ـ جار العمر ، وزميل من أيام المدرسة . .

فقالت ساخرة :

ـ بسلامته يطالبنا بالإضراب غدا احتجاجا على إلغاء الدستور!

فضحك التابع ضحكة عالية وقال :

ـ والله زمان! . . فكرتنا بالذى مضى!

وجذبه من ذراعه فجلس وأجلسه على كرسى جنبه . وهنا قامت المعلمة وهى تقول للتابع :

ـ أنا ذاهبة ، فتح عينك . .

مضت خارج الدرب وقد وقفت النساء لها على الجانبين . التفت التابع نحو الشاب قائلا :

ـ متى رأيتك لآخر مرة؟

ـ منذ عامين ، بل أكثر ، أين اختفيت كأنك هاجرت إلى الخارج؟

ـ وأنت . . ألا زلت غارقا فى السياسة؟ . . ولكن كيف تريد لهذا الدرب أن يضرب؟!

ـ إنه أعجب مكان رأيته فى حياتى . .

ـ أما زلت تذاكر وتنجح وتشترك فى المظاهرات؟

ـ وأنت! . . أين أنت؟ . . كم أوحشتنى!

ـ يُخيّل إلىّ أنك نسيتنى!

ـ أبدا ، حتى والدك نفسه واتتنى الجرأة مرة على أن أسأله عن مكانك . .

فضحك التابع وتساءل :

ـ وكيف أجابك؟

ـ نهرنى، وحذرنى من العودة إلى ذكر اسمك على مسمعه!

ـ وكيف حال أسرتى؟

ـ بخير، ولكن لم انقطعت عن زيارتهم؟

ـ أليس لديك فكرة عن حينا هذا؟

ـ ولا عن أى شىء سوى الكتب والدستور!

ـ باختفائك فقدنا أبهج صديق!

ـ لعلك الوحيد من العالم الآخر الذى كنت أحن إلى رؤيته . .

فنظر الشاب فيما حوله وقال :

ـ أوضح ما غمض علىّ أمره فى هذا الدرب .

ـ لكل شىء وقته، لا تتعجل!

ـ أتقيم هنا؟

ـ نعم .

ـ أتعمل هنا؟

ـ نعم .

ـ وهؤلاء النسوة؟

ـ لطيفات وطوع الأمر!

ـ مظهرهن فاقع مبتذل .

ـ بدأت تفهم .

ـ حقّا!

ـ وتطالبهن بالإضراب؟!

وضحك عاليا. وهمّ الشاب بالكلام، ولكن الموسيقى عزفت بالقهوة فعادت الفتاة إلى الرقص. وانجذبت عيناه إليها بقوة فتابع رقصها باهتمام وإعجاب. ثم شعر بعينى التابع تتجسسان عليه فابتسم مرتبكا بعض الشيء وتمتم:

ـ فتاة جميلة!

ـ حقّا؟

ـ من الطراز الذى يستهوينى!

ـ ترى ما نوع هذا الطراز؟

ـ يصعب تعريفه، ولكنها ترقص فى قهوة خالية!

ـ مجرد تمرين فالسهرة لم تبدأ بعد.

وتوقف العزف والرقص. وسرعان ما جاءت الراقصة وجلست إلى جانب التابع. وحمل إليها صبى فنجال قهوة فراحت تحتسيه بتمهل وتلذذ لا مبرر له. حانت منها التفاتة إلى الشاب الجديد فضبطت عينيه الصافيتين وهما ترنوان إليها بإعجاب لا خفاء فيه. وفى الحال وهبته عينيها بسخاء أذله وأثمله فقال التابع وهو يتابع الحكاية باهتمام موجها خطابه للراقصة:

ـ صديقى معجب بك!

فقالت ببسالة:

ـ أرجو إبلاغه إعجابى أيضا!

فتساءل التابع ضاحكا:

ـ من أول نظرة؟

ـ نظرة كفاية وفوق الكفاية!

فقال الشاب فى تلعثم:

ـ لا شك فى أنى سعيد الحظ . .

فقالت الفتاة باسمة :

ـ ما أجمل أن أرى وجها يحمر خجلا !

فقال التابع للشاب بتحريض :

ـ أثبت رجولتك .

فغمغم الشاب بأصوات مبهمة حتى قالت الراقصة مازحة :

ـ تاتا . . تاتا . . خط العتبة!

فنهرها التابع قائلا :

ـ شجعيه ولا ترعبيه!

فأعطته الفنجال بعد أن فرغت منه وهى تقول :

ـ شف لى بختى . .

فقلب الفنجال فوق الطبق ثم مضى يقرأ ما بداخله، قال :

ـ أمامك ليلة موسم طويلة غنية الموارد . .

ـ وماذا أيضا يا سيدنا الشيخ؟

ـ فى نهايتها يطرق بابك شيطان ليخطف روحك .

ـ ألا ترى فى طريقه رجلا جديرا برجولته؟

فاكفهر وجه التابع وأعاد الفنجال إلى الطبق، ولكنها ربتت ذراعه ملاطفة، ثم سألته بنبرة جادة :

ـ ماذا أعددتم له؟

ـ ذهبت المعلمة لتجهز له الإتاوة . .

ـ متى يحضر؟

ـ قد يمر فى أى ساعة، لكننا لا ندرى متى ينزل بقهوتنا!

فقالت بحنق :

ـ سيأخذنى معه ولا يدرى أحد متى أعود!

ـ لا تحدثينى عن ذلك . .

فسألت الراقصة الشاب راجعة إلى الدعابة :

ـ وأنت . . ألن تدافع عن حبيبتك؟

فتساءل الشاب :

ـ عم تتحدثين؟

ولكن التابع بادره قائلا :

ـ إن كنت تحبها حقّا فهى لك!

ـ لى؟!

ـ النظرة والحب والتنفيذ تحدث فى دربنا فى ساعة واحدة!

ـ أفندم؟

وقبل أن يجيبه تراءت المعلمة فى أول الدرب . سارت بعجلة إلى داخل القهوة وهى تومئ إلى الراقصة فتبعتها فى الحال . تبادل الصديقان نظرة طويلة ، ثم قال التابع :

ـ الظاهر أنك وقعت!

ـ ليس الأمر كما تتصور! إنها فتاة جذابة وفى عينيها نظرة بريئة!

ـ بريئة؟!

ـ ألك ثقة بفراستك؟

ـ قلبى لا يخطئ .

ـ هنيئا لك موهبتك ، ولكن ألا ترغب فى شىء من الترفيه قبل أن تخوض جهاد الغد؟

ـ يبدو أنك لم تعد تهتم بالسياسة!

ـ خلنا فيما نحن فيه ، ألا ترغب فى شىء من الترفيه؟

ـ ألم يعد يهزك حدث إلغاء الدستور؟

ـ انظر إلى دربنا العجيب، تأمله لتتذكره فيما بعد، فيه تسعد النفس بجميع محرمات العالم الآخر، مثل: الحب والحرية والاحترام!

ومال فوق أذنه و راح يهمس له وكأنما ينفث فى أساريره الذهول. وهتف الشاب:

ـ فوق العقل!.. ولكن ماذا تفعل هنا؟

ـ أقيم هنا كما قلت لك.

ـ ولكن...

ـ ألا ترى فى عينى نظرة بريئة؟

فضحك الشاب وقال:

ـ إنه مكان عبور لا مكان إقامة!

ـ لكل قاعدة استثناء كما قيل لنا فى المدرسة!

ـ من يتصور أنك ابن أبيك الرجل الطيب!

فبصق بازدراء وقال:

ـ اللعنة على الجميع!

وحل صمت فاتخذا منه هدنة للتفكير، ثم قال التابع بنبرة خلت من المزاح أو السخرية لأول مرة.

ـ إنى أكره العالم الذى جئت منه، هجرته بلا أسف عليه، وإذا ذكرته فإنما أذكر عنف أبى وغباءه، وسجن المدرسة الرهيب، وهراوات الشرطة، وما إن اهتديت إلى هذا المكان حتى أدركت أننى ولجت أبواب الجنة!

ـ الجنة؟!.. أى جنة؟!

ـ هنا يتقرر مصيرك بقوة رأسك، ويتحدد مركزك المالى بجرأتك،

وتقرر سعادتك بطاقة حيويتك، لا زيف على الإطلاق، اعتبرنى الآن رئيس وزراء يعترض طريقه رجل خطير فإذا تغلبت عليه يوما ما توجت ملكا!

فضحك الشاب قائلا:

ـ عاش الملك!

ـ ما الأمل الذى تشقى من أجله؟ وظيفة حقيرة فى حكومة حقيرة! ثم إنك عبد مضطهد، الاضطهاد يطبق عليك فى بيتك، ويطاردك فى الخارج، وكل عام أو عامين يتصدى لك دكتاتور كالكلب الأرمنت يلتهم لحمك ويهشم عظامك..

ـ أترى أن الحل أن أحمل متاعى وأقدم إلى هنا؟

فقال التابع معاودا سخريته:

ـ ذاك مطمح فوق قدرتك!

ـ ولكن...

ـ ولكن؟

ـ ولكن رب زيارة من آن لآخر تنفع ولا تضر!

ـ فى هذا ما يكفى فى الوقت الحاضر!

وغادرت المعلمة القهوة. هرع التابع إليها فقالت له:

ـ إنى ذاهبة مرة أخرى، سأوفق بإذن الله، انتبه، وإذا مر قبل أن أرجع فتصرف بحكمة، إياك والتهور وإلا هدمت الدرب فوق رءوسنا!

ذهبت المعلمة. عادت الراقصة إلى مجلسها. ومضت فترة قبل أن يسترجعوا جوهم السابق. وتساءلت الفتاة:

ـ هل قرأت البخت لصديقك؟

ـ نعم، فى طريقه بنت حلوة ورخيصة.

ـ هل تشبهنى هذه البنت؟

ـ لا أدرى، لم يبد فى الفنجال إلا جسمها العارى وحده!

ومالت الراقصة بغتة نحو الشاب فقبّلت خده. ضحك التابع وقال:

ـ قم.. لا تؤجل عمل اليوم إلى غد، فإن يوم الدستور غدا!

ونهض التابع ومضى إلى داخل القهوة وهو يقول:

ـ سآمر لكما بكأس كونياك على حسابك!

جعل الشاب يبادلها النظرات. رأى حلية فى عنقها فمد يده إليها وقربها من وجهه. ابتسم متسائلا:

ـ صورة من ؟

قطبت الفتاة مأخوذة، ولكنه قال دون أن يلاحظ شيئا:

ـ طفل جميل، من هو؟

تبدى التأثر فى وجه الفتاة حتى اغرورقت عيناها على رغمها.

ـ رباه.. مالك؟

أشاحت عنه بوجهها وهى توشك أن تنهار تحت موجة بكاء عاتية.

ـ آسف.. آسف لا تؤاخذينى!

وعاد التابع بالكأسين فوضعهما على الخوان متمتما: «عشرة قروش فقط ما أجمل عيونك!»، ثم تنبه إلى الفتاة فتساءل:

ـ تبكين؟!

شرح الشاب له ما غمض عليه بإشارة من يده إلى الحلية فاكفهر وجه التابع وهوى بكفه على خدها بوحشية غير متوقعة غير مبال بما تولى الشاب من ذعر وذهول. وهتف بها:

ـ تقيمين مأتما للزبائن فى ليلة الموسم!.. اشربى!

تناولت الفتاة الكأس فتجرعته دفعة واحدة وقدمت الآخر إلى الشاب، ولكنه تراجع قائلا بعصبية وحدة:

ـ كلا!

فقال له التابع:

ـ خذه معك إلى الحجرة!

ـ الحجرة؟!

ـ ستذهبان معا إلى ذلك البيت القريب.

ـ كلا!

ـ لا تتأثر كالأطفال، انس ما رأيت بسرعة، اذهب، لن تندم أبدا، البنت مدهشة، والبكاء ما هو إلا حيلة نسائية مشهورة..

وهرولت الفتاة إلى البيت وهى تقول بإغراء:

ـ اتبعنى، تاتا.. تاتا.. خط العتبة!

وقال له التابع:

ـ قم قبل أن يجيء الليل وتتقاطر أفواج الزبائن.

فقال بإصرار:

ـ كلا.

ـ كف!.. أنسيت الطراز الذى يستهويك؟

ـ لا رغبة على الإطلاق..

ـ لا تعقد الأمور.

ـ دعنى من فضلك.

ـ لقد سجل فى حسابها أول زبون فلا تتسبب لها فى ضرر.

ـ سأدفع ما تطلبه، ولكنى لن أذهب.

ـ عشرة قروش، هذا حسن، ولكنك لن تستطيع مواجهة الحياة بقلب كاللبن!

ـ ولكن . . أنت . . كيف هان عليك أن تلطمها بتلك القسوة؟ . . أأنت ولى أمرها؟

ـ إنى ولى أمرها . . وأعمل لصالحها ولصالح الكل .

ـ أتعد بكاءها على وليدها جريمة؟

ـ لا وقت هنا للبكاء . . إنى الأمين على الصالح العام!

فضحك الشاب على رغمه وقال :

ـ إنك تذكرنى بفعل وكلمات الطاغية! لشد ما تغيرت!

ـ كف عن التفلسف والحق بها . .

ـ لشد ما تغيرت . .

ـ لا تقس فى الحكم علىّ، إن أى ضعف يعترينا هنا إنما يعنى هلاكنا!

ـ وماذا يضطرك إلى الإقامة هنا؟

ـ مهما يكن من أمره فهو أفضل من العالم الآخر . .

ـ ما هو إلا مزاح!

ـ حقًا! . . أنسيت؟ . . أليس الطاغية يحكمكم؟ والشرطة تجلدكم؟ والجيش يحصدكم؟ والإنجليز يتربعون فوق رءوسكم؟ لا أحد يحكمنى هنا، وأنا لا أستعمل القوة إلا دفاعا عن الصالح العام . .

فقال الشاب وهو يلوح بيده فى أسى :

ـ وجئت بغبائى لأطالبكم بالإضراب غدا؟

ـ دستورنا هنا لم يلغ ولا يمكن أن يلغى، إنه دستور أبدى، وهو يقضى بأن نعمل لا أن نضرب، أن نعمل لا أن نبكى موتانا، ووراء هذه الجدران المتداعية نقدم لأمثالك السعادة التى يحلمون بها .

فقال الشاب كالحالم:

ـ واأسفاه.. لِمَ أعجز عن تحقيق ما أريد؟

ـ ماذا تريد؟

ولما لم ينبس عاد يسأله:

ـ ماذا تريد؟

فأجاب بصوت حالم أيضا:

ـ أشياء كثيرة، ما يهمنى منها الآن أن أرجع تلك الفتاة إلى العالم الآخر!

فضحك التابع وقال:

ـ لقد كانت هنالك ولم تجد مناصا من هجره والمجىء إلى هنا..

ـ من الممكن أن تتوافر لها حياة مستقرة هنالك..

ـ صدقنى لقد لاذت بنا كما يلوذ الغريق بصخرة!

وفجأة ظهر قزم وهو يصفر ثم صاح: «إبليس». وفى الحال انفجرت فى الدرب حركة شاملة. هرعت النساء إلى داخل البيوت وأغلقن الأبواب. قبض التابع على ذراع الشاب واندفع به إلى داخل القهوة وأغلق بابها. فى ثوان خلا الدرب تماما وشمله الموت. ومرت دقيقتان ثم ظهر الفتوة وسط عصابة مدججة بالنبابيت. ألقوا على المكان الخالى نظرة استعلاء وساروا على مهل فى خيلاء. ساروا يرجون الأرض بوقع أقدامهم الثقيلة وارتطام نبابيتهم بالبلاط. مضى الزحف وئيدا حتى اختفوا وراء المنعطف ومرت دقائق والدرب مستسلم للموت. حتى ظهر القزم مرة أخرى وصاح «أمان».

ورويدا رويدا أخذت الأبواب تفتح والحركة تدب واللغط يعلو، كما عاد التابع والشاب إلى مجلسهما حول الخوان. وقال التابع بهدوء:

ـ مناورة، ما هى إلا مناورة، وعندما سيعود سيجد الإتاوة جاهزة!

وانتابت الشاب نوبة ضحك هستيرية :

ـ ماذا يضحكك؟ !

ـ فكرت أن لو حصل الإضراب غدا بهذه الصورة فسيكون أكبر مظاهرة وطنية . .

ـ إنه يناور ونحن نناور !

ـ إنه الخوف يا صديقى .

ـ لا تحكم بالظاهر .

ـ لستم أفضل حالا منا !

ـ قياس مع الفارق ، ثق بأننى سأضربه ذات يوم !

ـ وتصبح عند ذاك الطاغية !

ـ لقد نالها عن جدارة وسأنالها عن جدارة . أما فى العالم الآخر فالطاغية يطغى استنادا إلى قوة أسياده .

ـ أأنت راض عن نفسك حقّا؟

ـ ثمة أمل دائما لا يغيب !

ـ يا للخسارة ، لقد كنت تلميذا ذكيا ولكنك كنت عدو الاجتهاد !

ـ الحمد لله ، فلو كنت مجتهدا لمضيت فى طريقك حتى أدفن فى إدارة من إدارات الحكومة !

وهنا عادت الراقصة إلى مجلسها وهى تقول مخاطبة الشاب :

ـ خيبت ظنى !

فقال لها التابع بخشونة :

ـ الفضل لدموعك الحارة .

فقال الشاب برجاء :

ـ لا تعد إلى ذلك .

فقال لها التابع :

ـ استعدى للرقص . .

فقالت بإشفاق :

ـ إنى متعبة !

فضحك ضحكة عالية وقال :

ـ متعبة فى ليلة الموسم !

ـ إلىّ بكأس كونياك . .

ـ اطلبيه من عاشقك !

وأدرك الشاب المقصود فقال :

ـ هات لها كأسا !

ذهب التابع . نظر الشاب إليها باهتمام ورثاء وقال :

ـ ثمة شىء فى عينيك ، أنت متعبة حقّا . .

ـ أعراض عابرة سرعان ما تزول .

ـ يُخيّل إلىّ أن هذا الدرب ليس بالمكان المناسب لك !

فقالت بسخرية :

ـ ربما ، لعل المكان الأنسب هو السجن أو القبر .

ـ أعوذ بالله !

ـ أليس الأفضل أن نذهب إلى الداخل لنغير المكان والحديث؟

فتردد الشاب قليلا ثم قال :

ـ فى وقت آخر . . ولكن . . أنت متعبة حقّا .

ـ حقّا؟ !

ووقفت فجأة كأنما تنتزع نفسها من كابوس . وخبت نظرة عينيها . وأخذت تتنفس بعمق وبجهد كأنما تحشر الهواء فى قناة مسدودة . وقف

منزعجا واقترب منها خطوة ، ولكنها أشارت إليه أن يبتعد . خاضت معركة مجهولة وحدها بلا نصير وبلا استجداء . ثم انقشعت السحابة السوداء فاستردت العين نظرتها المألوفة . تنهدت . ابتسمت فى استسلام . ثم انحطت فوق مقعدها . غمغمت :

ـ لا شيء .

ـ ولكنك . . .

ـ انتهى .

ـ أأنت بخير ؟

ـ نعم ، اجلس . .

جلس وهو لا يحوّل عنها عينيه .

ـ أعتقد أنه يلزمك راحة طويلة .

ـ تلزمنى راحة أطول مما تتصور !

ـ وهل تستطيعين أن ترقصى ؟

ـ أستطيع ، لا أستطيع ، سيان !

وشحب لونها من جديد . وخبت نظرتها .

ـ أنت متعبة يا عزيزتى !

ـ حقًّا ! وماذا بعد ؟ الطريق طويل .

ـ دعى الأمر لى .

ـ طريق طويل ، أطول مما تتصور .

ـ حالتك تزداد سوءا .

ورجع التابع يحمل كأسين فى يديه ويدندن ، وقال وهو يلقى عليهما نظرة باسمة :

ـ كعروسين فى شهر العسل .

فقال له الشاب :

ـ إنها ليست على ما يرام .

فقطب متسائلا وهو يحدجها بنظرة ارتياب :

ـ عادت للبكاء؟

ولكنه قرأ فى صفحة وجهها شيئا جديدا . قدم لها كأسا ولكنها أطاحت به ضجرة فوقع على البلاط وتحطم مختلطا بسائله . وتأوهت بعمق طارحة رأسها على مسند الكرسى . وصادف ذلك قدوم المعلمة فنظرت إليها عابسة وتساءلت :

ـ مالها؟

فقال التابع وهو لا يحوّل عن الراقصة عينيه :

ـ أزمة كالعادة!

ـ هل تعاطت شيئا؟

أغمضت الراقصة عينيها متدهورة تماما ، فهتفت المعلمة بالتابع :

ـ أدركنا بكوب ماء بالملح . . أسرع .

وقال الشاب للمعلمة :

ـ يجب استدعاء طبيب!

فصاحت المعلمة بحنق :

ـ انتهينا من الدستور وسندخل فى الطب .

ورجع التابع بالكوب ، ولكن الراقصة تقلصت بحركة عنيفة ثم تهاوت ساقطة على الأرض .

أسرع الشاب إليها ولكن التابع كان أسرع منه . عكف عليها يربت وجهها ويدلك خديها وصدرها . قرّب وجهه من فيها . جس نبضها . رفع وجها جامدا ذاهلا ، منهزما لأول مرة وتمتم :

ـ ماتت!

ـ ماتت!

فندت عن المعلمة صيحة خافتة يائسة وقالت:

ـ أنت أعمى . .

فأعاد الكرة ، ثم قال ببرود:

ـ ماتت يا معلمة!

ـ يا خبر أسود!

وهتف الشاب:

ـ خطأ ، يجب استدعاء الإسعاف.

فقال التابع بوحشية:

ـ اصمت ، لقد ماتت.

فهتفت المعلمة:

ـ فى ليلة الموسم! . . يا له من حظ أسود من الليل!

وقال الشاب بعناد:

ـ إنها حية!

فصاحت المعلمة فى وجهه:

ـ ألا تفهم يا طلعة الشؤم!

ـ ولكن كيف؟

ـ إنك تخاطبنى كما لو كنت قابضة الأرواح.

ثم التفتت إلى التابع وسألته:

ـ هل تعاطت شيئا؟

ـ كلا . .

ـ هو قلبها إذن؟

ـ أعتقد ذلك .

ـ لو يكن بسبب تعاطى شىء فسنقع فى س و ج .

ـ كلا ، ولكن ما العمل الآن؟

فقالت المعلمة :

ـ فلنحملها إلى حجرتها أولا .

وتعاون الثلاثة على حملها ومضوا بها إلى البيت .

وتساءلت امرأة :

ـ مالها يا معلمة؟

فأجابت المرأة بلا تردد :

ـ مسطولة!

ودخل الموكب البيت بين ضحكات تتجاوب على الجانبين . وما لبث الأصيل أن ولى تماما ومضى الظلام يهبط ماحيا كل شىء . أشعلت الأنوار . بدأ الرواد يحضرون فرادى وجماعات . عزفت الجوقة ودبت فى الأركان حياة صاخبة معربدة . ورجعت المعلمة وتابعها والشاب فجلسوا حول الخوان المعدنى فى وجوم بادئ الأمر ، ولكن المعلمة سرعان ما قالت :

ـ ابسطوا وجوهكم كما يجدر بأناس يستقبلون موسما .

ثم بنبرة متشددة منذرة :

ـ لا يجوز بحال أن يفطن أحد إلى سر الحجرة المغلقة . . وإذا سأل سائل عنها فهى مشغولة بزبون!

وتنهدت بحنق وواصلت حديثها :

ـ لو عرف أن الموت قابع بالبيت لما طرقه طارق حتى القيامة!

فقال الشاب غاضبا :

ـ ولكنه تصرف أبعد ما يكون عن الإنسانية . .

فقالت المعلمة مخاطبة التابع ودون مبالاة باحتجاج الشاب :

ـ تكفل بصديقك ، أنت مسئول عنه ، ولا جدوى من تصرف إنسانى يقضى علينا بالخراب العاجل ، سيجىء دورنا يوما ما ولن تبكينا عين ، سنشيع باللعنات حتى من زبائننا ، الليلة موسم فلتمض بالبهجة والحبور !

فقال التابع :

ـ لا تخشى من جانب صديقى .

فقال الشاب :

ـ ولكنه وضع لا يقبله عقل .

فقالت المعلمة :

ـ لم يحدث شىء غير طبيعى ، وليس فى قدرتنا أن نرد الأرواح إلى أجسادها .

ـ ولكن شتان بين القسوة والرحمة !

فقال التابع :

ـ ليس إلا أننا نؤجل إعلان وفاة !

ـ ولكن للموت احترامه !

فهتفت المعلمة بنفاد صبر :

ـ احترام الموت بعد الدستور والطب !

فقال التابع معتذرا عن صديقه :

ـ لعله يلتقى بالموت لأول مرة فى حياته .

فقالت المعلمة للشاب :

ـ لا تطالبنا بالتفريط فى الحياة باسم احترام الموت ، ابق لصق

صديقك حتى تنتهى السهرة، واحتفل بالموت بعد ذلك ما شاءت لك إنسانيتك!

فقال التابع:

ـ دعى الأمر لى يا معلمة!

ـ ربنا يستر.

ـ جهزت الإتاوة؟

ـ نعم..

ـ وإذا طالب بالراقصة؟

ـ لن يطالب قبل نهاية السهرة، وله إن شاء أن يقاتل عزرائيل عند ذاك..

وقامت وهى تبسط وجهها فمضت إلى القهوة هاتفة:

ـ يا جمال الرقص يا جماله!

ورمق الشاب التابع بمرارة، ثم قال:

ـ لشد ما تغيرت!

فقال التابع بوجوم:

ـ لا تبالغ يا عزيزى..

ـ جثة ملقاة فى الداخل والعربدة دائرة فى الخارج!

ـ لا مفر، للعمل ساعة وللموت ساعة.

ـ إنى حزين، بودى أن أفعل شيئا.

ـ حسن، أعد إليها الحياة.

ـ يا لكم من وحوش!

ـ أتذكر كيف كان يلقى بضحايا المظاهرات فى القبور بملابسهم حتى لا يشملهم الإحصاء الرسمى؟!

ـ إلى الجحيم بكل شرير وبكل شر!
ـ ما زالت دنيانا أفضل.
فقال الشاب بضيق:
ـ عن إذنك، أريد أن أذهب.
ـ كلا.
ـ كلا؟
ـ المعلمة لا تسمح بذلك.
ـ لتذهب المعلمة إلى الشيطان!
ـ لقد وجدت نفسك فى دربنا فلتتم التجربة!
ـ بى غثيان منه.
ـ خذ الأمر ببساطة ولو من أجل خاطرى!

وساد الصمت بينهما، ولكن صخب العربدة انهال عليهما من الأركان كالصواريخ، ورغم الزياط سمع صوت الشاب وهو يتمتم:

ـ يا لها من شابة تعيسة!
فقال التابع ملاطفا:
ـ كانت مريضة بالقلب.
ـ لم تنعم بحياة هادئة تناسبها.
ـ ذلك أنه لم يكن من الجائز أن تموت جوعا.
فقال الشاب منفعلا:
ـ إنى أحتقر برودك.
فقال ضاحكا:
ـ إنى أحتقر حرارتك!
ـ دعنى أذهب.

ـ غير ممكن، إنها تخشى أن تبلغ عن الجثة.

ـ أيعنى ذلك أننى سجين؟!

ـ أنت ضيف صديقك القديم.

ـ يجب أن أستيقظ مبكرا، أمامنا يوم جهاد عصيب!

ـ يسرنى أن أنقذك من الرصاص الذى يعد الآن لأمثالك.

ـ أنا لا أخشى الموت.

ـ ولكنك تحترمه أكثر مما ينبغى.

رفع رأسه إلى نافذة الحجرة الرهيبة، وقال:

ـ جثة منسية، بلا أهل ولا أصدقاء ولا رحماء.

ـ لم تعد بحاجة إلى أحد.

وظهر القزم وهو يصيح «إبليس». خرجت المعلمة فجلست بين الشاب والتابع. سرعان ما سد موكب الفتوة مدخل الدرب. ولما وصل إلى القهوة قامت المعلمة وتابعها لاستقباله. قالت بأدب لأول مرة:

ـ تحية لسيد الرجال.

ـ موسم طيب بإذن الله.

وضعت صرة فى يده وهى تقول:

ـ بفضل الله وبفضلك..

ـ وأين البنت؟

ـ مع زبون!

ـ أرسلى فى طلبها.

ـ ستكون بين يديك فى نهاية الليلة.

ـ سأنتظر فى القهوة ساعة واحدة..

ـ ولكن..

ـ ساعة بالتمام والكمال!

ـ أنت سيد من يفهم ويقدر.

ـ بالتمام والكمال وإلا فليهنأ عزرائيل بوليمة فاخرة!

ودخل القهوة متبوعا برجاله.

نظرت المعلمة فى حيرة إلى التابع، وسألته:

ـ ما العمل؟

ـ ما من قوة فى الأرض تستطيع أن تأتى بها إليه كما يريد.

ـ ماذا تتوقع؟

ـ أنفضى إليه بالحقيقة؟

ـ هذا يعنى خرابنا.

ـ أخشى أن يعرف الحقيقة رغم إرادتنا.

فقالت بغضب:

ـ أفضل أن يدهمنى القضاء على أن أسير إليه بقدمى.

ثم قامت وهى تقول:

ـ سأجلس معه وليعنى الله على إقناعه!

ومضت إلى داخل القهوة. مد الشاب جذعه يتابعها حتى استقرت إلى جانب الفتوة. ثم تراجع إلى جلسته وهو يسأل التابع:

ـ ما معنى ذلك؟

ـ ليس عندى ما أضيفه إلى ما سمعت.

ـ ماذا تتوقع أن يحدث فى ختام الساعة؟

ـ سيقتحم البيت محطما من يعترضه.

ـ ولكنه لن يجد سوى جثة.

ـ وعند ذاك يتقرر خراب البيت.

ـ وما دورك أنت فى ذلك كله؟
ـ لا أستطيع أن أدعه يمر دون مقاومة!
ـ أتفكر فى اعتراض سبيله؟
ـ هذا هو عملى.
ـ عملك؟
ـ أنا حامى منطقة المعلمة!
ـ ولكنه.. ولكنه سيقضى عليك.
ـ ربما!
ـ إنه مؤكد فلا تخاطر بحياتك.
ـ هو عملى كما قلت لك.
ـ تجاهله.
ـ أفقد عملى وكرامتى.
ـ يمكن أن تتسلل بطريقة ما إلى الشرطة!
فقال ضاحكا:
ـ أفقد كرامتى مرتين!
ـ لا أفهمك.
ـ هى تقاليد عملى.
ـ إنه الجنون عينه.
فابتسم التابع قائلا:
ـ ممكن أن يقال مثل ذلك عن زعيمك.
ـ أخشى أن تذهب ضحية الغرور، دعنى أتسلل أنا..
ـ أرفض اقتراحك.
ـ أنت مهدد بفقد حياتك.

ـ محتمل!

وساد الصمت. نظر الشاب فى ساعة يده فتزايد قلقه. هرب من مخاوفه إلى أمواج الرواد التى لا تنقطع. يعربدون ولا فكرة لأحدهم عما يتأزم فى المقهى ولا عما يقبع فى البيت. والتفت نحو صديقه قائلا:

ـ الوقت يمر أسرع مما تتصور.

ـ ليس أسرع مما أتصور.

ـ قد تكون آخر ساعة فى حياتك.

ـ قول يصدق على أى مخلوق!

ـ لن تكون معركة عادلة.

ـ لا توجد معركة عادلة!

ـ يا له من انتظار!

ـ يا له من انتظار!

ـ ويا لها من نهاية!

ـ ويا لها من نهاية!

ـ بودى أن أصعد إلى حجرة الفتاة.

ـ لم؟

ـ لأجس نبضها من جديد!

ـ إنى أتوثب لمواجهة القضاء وأنت تحلم بالخرافات.

ـ سمعنا عن جثث دبت فيها الحياة بعد دفنها؟

ـ إذا قامت القيامة فابتعد عن ميدان المعركة..

ـ كنت أعتقد أن الغد هو يوم الخطر.

ـ حافظ على حياتك حتى الغد!

ـ يا له من يوم عجيب!

ـ أرجو أن تكون قد تعلمت أشياء مفيدة .

ـ كيف تنتظر الموت بهذا الهدوء كله؟

ابتسم التابع ابتسامة غامضة وقال :

ـ عندما ماتت الفتاة حل بى تشاؤم غريب . .

ـ لم يبد عليك شىء قط .

ـ لا يجوز فى عملى أن يبدو على الوجه شىء!

ـ يُخيّل إلىّ أنك تتكلم بحزن لأول مرة؟

صمت التابع مليا ، ثم قال بنبرة اعتراف :

ـ كانت حبيبتى الوحيدة فى هذه الدنيا!

ـ من؟

ـ الميتة!

فغر الشاب فاه من ذهوله فاستطرد الآخر :

ـ عشرة ليست بالقصيرة ، وبها أصلت نجاحى فى هذا الدرب .

ظل الشاب يرمقه بذهول ، أما هو فقال :

ـ والحق قد ماتت بموتها أشياء لا تعد ولا تعوض .

ونهض وهو يهمس :

ـ ما علينا . .

وأشار إلى المعلمة إشارة خفية فجاءته بوجه كالح . سألها :

ـ هل لان جانبه؟

فقالت بيأس :

ـ أصلب من الصخر .

ـ لم تبق إلا دقائق معدودات . .

والتفت نحو صديقه وقال :

ـ ابتعد دون تردد.

ومضى نحو القهوة فى هدوء وثبات. وجعل يقترب من الفتوة باسما حتى وقف بين يديه. وبغتة استل من صدره خنجرا ودفنه فى قلب الوحش. انتتر الفتوة قائما جاحظ العينين. ترنح جسمه الضخم ودار حول نفسه ثم تهاوى كجدار تهدم. وفى الحال أفاق الوحوش من ذهولهم. زلزلت القهوة بحركة جائحة. انتصبت أجسام، استلت خناجر، ارتفعت نبابيت، تطايرت شتائم، اهتزت جدران، تحطمت مصابيح، هرولت أقدام، اختفى كل شىء فى ظلام حالك، صرخت صفارة الشرطى. ومضى وقت غير قصير فى الظلام. . ولما أشعلت المصابيح من جديد تبدى الدرب فى منظر مختلف. عند مدخل القهوة انطرحت ثلاث جثث للفتوة والتابع والراقصة! خلا الدرب من جميع الرواد عدا نفر قليل دهمتهم المعركة فاندسوا تحت الأرائك ثم أخذوا يخرجون من مخابئهم بوجوه شاحبة، على رأسهم الشاب. وطوق المكان قوة من الشرطة والمخبرين بقيادة ضابط مباحث. وانتحت جانبا المعلمة والنسوة بأبصار زائغة. أما رجال العصابة فلم يظهر لهم أثر.

تحوّل الضابط إلى المعلمة وسألها:

ـ ما معلوماتك عن الواقعة؟

فأشارت إلى جثة الفتوة وقالت:

ـ جاء على رأس عصابة فهاجم الدرب بلا رحمة. .

ـ ماذا رأيت من المعركة؟

ـ إنى امرأة ضعيفة، هربت فلم أر شيئا!

أومأ الضابط إلى جثة التابع وسألها:

ـ من هذا؟

ـ مدير المقهى، قُتل ولا شك وهو يدافع عن نفسه.

ـ وهذه الفتاة؟

ـ كانت ترقص فى المقهى عندما نشبت المعركة!

ـ لا يظهر بها أثر لاعتداء؟

ـ كانت مريضة بالقلب فربما قتلها الخوف . .

عند ذاك خاطب الضابط الجميع قائلا :

ـ لا يبرحن أحد مكانه حتى يدلى بأقواله .

وإذا بمخبر يتجه نحو الشاب فيقبض على ذراعه ويشده إلى موقف الضابط ، ثم قال :

ـ إنى أتذكر هذا الشاب يا حضرة الضابط . .

فتساءل الضابط متهكما :

ـ أهو من رجال العصابة؟

ـ هو الذى اعتدى على حضرة المأمور فى مظاهرات العنابر ، ثم نجح يومها فى الهرب .

رماه الضابط بنظرة قاسية ، ثم قال :

ـ ما شاء الله! . . تشعلون الفتنة فى البلد وتهرولون إلى المواخير!

فنجان شاي

دق جرس المنبه. تقلب الرجل فى فراشه. تثاءب بصوت مرتفع كالتوجع. أزاح الغطاء وجلس. تزحزح إلى الوراء حتى استند إلى ظهر السرير. تثاءب مرة أخرى. مد يده إلى زر جرس معلق فوق الفراش فضغطه. جاءت امرأة حاملة صينية عليها إبريق شاى وجريدة الصباح فوضعتها على ترابيزة لصق السرير. ملأ القدح بنفسه وتناول الجريدة. لاحظ أن المرأة لم تبرح مكانها فحدجها بعين متسائلة، فقالت:

ـ الأولاد...

ولكنه قاطعها بحدة:

ـ يا فتاح يا عليم، صبرك حتى أغادر الفراش..

وترددت المرأة فعاد يقول:

ـ هذا وقت الشاى والجريدة فلا تفسدى علىّ أطيب أوقات اليوم.

تنهدت المرأة وغادرت الحجرة وهو يتابعها بعينيه حتى أغلقت الباب وراءها. رشف من الفنجان رشفة ثم عكف على القراءة.

* * *

تحركت ستارة مسدلة فوق نافذة. خرج من ورائها رجل مرتديا بدلة سوداء. تقدم بخطوات متمهلة حتى وقف فى وسط الحجرة. نظر فيما حوله، ثم قال بلهجة خطابية:

. ـ الحمد لله . .

فتمتم رجل الفراش ورأسه لا يتحول عن الجريدة :

ـ الذى لا يحمد على مكروه سواه .

ـ لو قلت إن كل شيء حسن فربما وقع القول من الآذان موقع الغرابة . .

فتمتم رجل الفراش :

ـ ربما .

ـ وقد يتوهم البعض أننا لا نتحرك .

ـ قد .

تضايق ذو البدلة السوداء من تمتمات الآخر فمضى إلى الفراش وراح ينقر على رأسه محذرا ثم رجع إلى موقفه . انكمش رجل الفراش ، ولكنه لم يتحول عن الجريدة وواصل قراءته الصامتة فى هدوء . وقال ذو البدلة السوداء :

ـ نظرة عادلة إلى الوراء كفيلة بإبراز المدى الذى قطعناه .

فهز رجل الفراش رأسه دون أن ينبس .

ـ فى كل شيء بغير استثناء .

فهز رجل الفراش رأسه مرة أخرى دون أن ينبس .

ـ ليعلم ذلك عدونا الخارجى ، وليعلمه عدونا الداخلى .

ونظر ذو البدلة السوداء صوب رجل الفراش مستطلعا فتمتم هذا دون أن يتحول عن جريدته :

ـ كلام طيب .

عند ذاك أخلى ذو البدلة السوداء مكانه فاتخذ موقعا جديدا فى ناحية الحجرة المقابلة للفراش ووقف صامتا كتمثال .

* * *

تحركت الستارة مرة ثانية فبرزت من ورائها فتاة جميلة فى لباس البحر. تقدمت مزهوة بجمالها الفتان حتى وقفت فى وسط الحجرة. وجعلت ترسم فى الهواء حركات سباحة كشفت بعمق أكثر عن مفاتنها، ثم قالت بصوت عذب:

ـ سأظهر هكذا فى دور جديد تماما فى الفيلم الجديد «الأبواب الخلفية».

فقال رجل الفراش:

ـ يسعدنى أن أراك هكذا فى أى دور!

ـ ولكنه دور عجيب يجمع بين المرح والمأساة.

فقاطعها بحماس وهو لا يرفع رأسه عن الجريدة:

ـ المهم هو أنت!

ـ يقتلك بالضحك ويثقفك بالهدف!

ـ لا قيمة لشىء سوى قامتك السحرية.

ـ فهو فيلم ترفيهى وهادف معا.

ـ ماذا؟ سمعى ثقيل، هلا حدثتنى فى أذنى؟

دنت الفتاة من الفراش ومالت نحوه فطوق وسطها بذراعه وجذبها نحوه حتى التصقت به.

ـ قلت إنه فيلم ترفيهى وهادف معا.

ـ ماذا؟ قربى أكثر وأكثر.

فصاح ذو البدلة السوداء بصوت راعد:

ـ فيلم ترفيهى وهادف معا، أسمعت؟!

سحب ذراعه بسرعة. واصل انكبابه على الجريدة. رجعت الممثلة وسط الحجرة. دارت حول نفسها فى حركة استعراضية، ثم مضت ناحية البدلة السوداء واتخذت موقفا.

وقال ذو البدلة السوداء :

ـ الفنانة تريد أن توقظ ذوقك، ولكنك تأبى إلا أن تراها بشهوتك .

ـ رأيت جسدا جميلا عاريا .

ـ أتريد أن نقدم لك الحكمة فى برميل؟

ـ ما أكثر الأشياء التى تعذب الإنسان!

ـ سنعرض عليك أجسادا عارية .

ـ شكرا!

ـ والويل لك إذا عابثتك شهوة من شهوات الجسد .

وجم الرجل فوق جريدته فسأله الآخر بحدة :

ـ ماذا قلت؟

ـ الويل لى .

* * *

انزاحت الستارة بعنف. دوت فى الجو طلقات رصاص وانفجار قنابل وأزيز طيارات. خرج من وراء الستارة جندى أمريكى وفيتنامى وهما يتبادلان إطلاق النار. تساقطت فوارغ الرصاص فوق الرجل فى فراشه فاضطرب فى مجلسه، ولكنه لم يرفع رأسه عن الجريدة. رشف رشفة فى عصبية واستمر فى القراءة. وصاح الجندى الأمريكى :

ـ أيها الشيوعى المنحط .

فصاح به الفيتنامى :

ـ أيها الإمبريالى المتوحش .

ـ ماذا جاء بك من الشمال؟

ـ ماذا جاء بك أنت من وراء المحيط؟

ـ الأرض كلها أمريكية . . وغدا سيكون القمر أمريكيا .

فقال الفيتنامى وهو يطلق النار :

ـ وستكون المقابر أمريكية ، سأقتلك ثم أقطف وردا وأرقص .

وكثر تساقط فوارغ الرصاص فوق رجل الفراش، فقال متذمرا :

ـ ابتعد .

فصاح الأمريكى بالفيتنامى :

ـ انظر كم أنك مزعج للناس .

فصاح به الفيتنامى :

ـ إنه يوجه الخطاب لك أنت .

ـ ما كان ليجرؤ أن يخاطبنى بتلك اللهجة .

ـ إنى أطلق النار عليك . أما أنت فتطلق النار فى جميع الجهات .

وعاد رجل الفراش يقول متأوها :

ـ اللعنة على كل معتد أثيم!

فصاح الأمريكى فى وجه الفيتنامى :

ـ أرأيت أنه يقصدك أنت؟ !

ـ يالجنون العظمة!

وظلا يتبادلان إطلاق النار حتى فرغت ذخيرتهما فمضيا غير بعيدين من الممثلة ووقفا جامدين . وقال رجل الفراش وهو مكب على الجريدة :

ـ هذا الرجل جدير بكل إعجاب .

فقال ذو البدلة السوداء :

ـ بكل تأكيد .

وقالت الممثلة :

ـ أرأيت كيف أنه يقطف الورد ويرقص فى حومة القتال؟ !

فقال رجل الفراش بصوت منخفض :

ـ سمعى ثقيل، هلا اقتربت لأسمعك؟

ولكن ذا البدلة السوداء ضرب الأرض بقدمه فساد الصمت.

* * *

تحركت الستارة للمرة الرابعة فخرجت من ورائها امرأة متوسطة العمر تحمل بين ذراعيها ستة من المواليد فوقفت فى وسط الحجرة وقالت:

ـ أنا امرأة من كوبا، ولدت ستة توائم وجميعها فى صحة جيدة!

فقالت الممثلة:

ـ هيهات أن تصلحى بعد ذلك لحياة الأضواء.

ـ ولكنى معجزة من معجزات الحياة!

فقال الجندى الأمريكى:

ـ نحن فى عصر معجزات العلم والصناعة لا الحياة، ومثل هذه المعجزة المزعومة خليقة بأن تدفع العالم إلى أنياب مجاعة شاملة.

فقال الفيتنامى:

ـ لا خوف على العالم من مجاعة ما دامت قنابلكم تحصده.

ـ إنها لا تبيد إلا النفايات.

فقالت الأم:

ـ هل أجد طعاما متوافرا؟

فقال لها الفيتنامى:

ـ توجد ذخيرة بعدد حبات الرمال.

فقالت الأم:

ـ لم أسمع تحية واحدة.

فقال رجل الفراش:

ـ طوبى لك فى الدارين!

ـ شكرا يا سيدى.

ـ ولأبيهم أكبر تحيات التقدير.

ـ أكرر الشكر يا سيدى.

ـ هل لديكم قانون تعليم مناسب؟

ـ عندنا أشياء كثيرة مناسبة.

ـ أهلا بك وسهلا.

وذهبت إلى الناحية الأخرى. جلست على الأرض وراحت تغنى للمواليد. تغنى وتغنى حتى ثقل رأس الفيتنامى بالنعاس فتثاءب، وتبعه الأمريكى على الأثر. وجلسا تباعا على الأرض عن يمين الأم ويسارها. وأوسعت لكل موضعا فى حجرها فتوسده برأسه وغط فى النوم.

* * *

وتحركت الستارة حركة عصبية فخرج من ورائها رجلان، اندفعا إلى وسط الحجرة وكل منهما ممسك برأس الآخر يحاول جهده أن يخفضه إلى أسفل. صاح أولهما:

ـ المارك فوق الجميع.

فصاح الآخر:

ـ الفرنك لا يُعلى عليه.

ـ المارك رمز التفوق.

ـ الفرنك رمز الإنسانية!

ولكم الألمانى الفرنسى فتراجع مترنحا حتى سقط فوق رجل الفراش. نهض الفرنسى من سقطته فهجم على الألمانى ولطمه على وجهه، ثم قبض على رباط عنقه وجذبه منه جذبة قوية فاندلق ناحية

الفـراش حـتى ارتطم برجل الفـراش . واسـتـعـاد تـوازنه وانقض على خصمه . وجعل كل منـهما يحاور الآخر حتى لا يمكنه من نفسه . ونال منهما الإعياء فوقفا متباعدين وهما يلهثان . وقالت الممثلة :

ـ أقترح أن تودعا نقودكما عندى حتى تسويا خلافاتكما !

فابتسم إليها ذو البدلة السوداء وقال :

ـ قول طيب ، أحسنت .

فخطت نحوهما خطوتين وقالت بإغراء :

ـ لدى موضوع يصلح للإنتاج المشترك .

فقال الألمانى :

ـ أوافق أن يكون عن حرب ١٨٧٠ .

وقال الفرنسى :

ـ حرب ١٩١٤ أهم وأخطر .

فقالت الممثلة :

ـ هو عن امرأة مريضة نفسيا ، وأعراض مرضها أن تسير عارية وهى نائمة !

فقال رجل الفراش وهو مكب على جريدته :

ـ مرض ممتاز .

وقال الفرنسى :

ـ أعطينا مثالا لتلك الحالة المرضية .

مدت يديها للجزء الأعلى من لباس البحر كأنما لتنزعه ولكن ذا البدلة السوداء قال :

ـ ليس فى وسط الحجرة !

فقال رجل الفراش :

ـ يهمنى أيضا أن أرى ما يجرى فى بيتى .

فقال الآخر بحدة :

ـ الأجانب يستحقون معاملة خاصة !

ـ لقد عانيت من صراعهم فمن حقى أن أشاركهم بعض المسرة !

فقالت له الممثلة :

ـ لا من أهل المال أنت ولا من أهل الفن .

فتساءل منكرا :

ـ أفندم؟ سمعى ثقيل .

فقال ذو البدلة السوداء :

ـ ألاحظ أن أذنك تعمل بحسب هواك .

ـ إنى أمارس حريتى من خلال أذنى .

ـ سأسمعك بنفسى ما يتعذر عليك سماعه .

ـ شكرا ، لا داعى لتكليف خاطرك !

اندست الممثلة بين الرجلين فتأبطت ذراعيهما ومضت بهما إلى موضعها السابق .

ومن وراء الستارة خرج رجلان ، يحمل أولهما كتبا ويحمل الآخر قوارير . وقفا جنبا لجنب وسط الحجرة ثم قال حامل الكتب بصوت عريض رنان :

ـ من ذخائر التراث ، تفسير القرآن ، طبعة أنيقة مع تعليقات بأقلام أكبر الأساتذة ، الثمن جنيه واحد .

وقال حامل القوارير بصوت منغوم :

ـ أفخر أنواع الويسكى ، وردت منها كميات محدودة ، بأسعار محددة ومعقولة تتراوح بين أربعة جنيهات وخمسة جنيهات .

فسأل رجل الفراش حامل الكتب :

ـ ألا تميزون أرباب الأسر بشىء من التخفيض؟

ـ يختص بالتخفيض الطلبة فقط .

ـ وأرباب الأسر؟

ـ الثمن معقول جداً . .

ـ شكرا .

وعاد حامل القوارير يقول :

ـ أفخر أنواع الويسكى ، كميات محددة وأسعار زهيدة!

فسأل رجل الفراش حامل الكتب :

ـ أحرام أن يتناول المسلم قليلا من الويسكى كدواء؟

فأجاب حامل الكتب :

ـ إنى أتناول كأسا قبل النوم كدواء لضيق الشرايين .

ـ ولكنى أشكو ثقلا فى السمع ؟!

فقال حامل القوارير :

ـ ثقل السمع عرض مرضى لضيق الشرايين .

ـ ولكن ثمن الويسكى كفيل بسد الشرايين .

وتدخل ذو البدلة السوداء فى الحديث فخاطب حامل القوارير قائلا :

ـ قف جنب السيد الفرنسى فهو يحب المرح .

وتحول إلى حامل الكتب قائلا :

ـ قف جنب السيد الألمانى فلعله أن يكون مستشرقا .

ثم التفت إلى الممثلة وقال :

ـ همتك ، لديك قرآن وويسكى وموضوع مشترك!

* * *

تحركت الستارة فخرج من ورائها رجلان من رجال الفضاء، روسى وأمريكى، سارا بخفة نحو وسط الحجرة، تصافحا، ثم قال الروسى لزميله الأمريكى:

ـ أصدق التهانى.

فقال الأمريكى:

ـ ومنى إليك أصدق التهانى.

ـ لا يهم أننى سبقتك إلى التجربة ما دمت تتقدم بنجاح، تهانى..

ـ المهم هو النجاح، وسألحق بك، وسوف أسبقك، تهانى..

ـ لا أظن أنك ستسبقنى أبدا، فات أوان ذلك، تهانى.

ـ أراك لا تعمل حسابا للمفاجآت الأمريكية، تهانى.

فقال رجل الفراش:

ـ إنكما حلم وردى فى عالم قطران!

ـ شكرا أيها الرفيق.

ـ شكرا أيها الزبون.

فقال رجل الفراش:

ـ بفضل العلم تقع معجزات.

فقال الروسى:

ـ وبفضل النظام الشيوعى.

فقال الأمريكى:

ـ بل بفضل النظام الرأسمالى.

فقال رجل الفراش:

ـ لقد ارتفعتما إلى سماوات الله عز وجل.

فقال الروسى:

ـ رأيت الكواكب تسبح فى أفلاك متأثرة باختلاف أحجامها فمساراتها متحددة بصراع طبقى أزلى سرمدى.

فقال الأمريكى:

ـ وهناك الشمس تمد الكواكب بالحرارة والضوء كالمعونة الأمريكية.

ـ ألم تريا شيئا وراء ذلك؟

فقال الروسى:

ـ لا شىء وراء ذلك.

ولكن الأمريكى صاح:

ـ رأيت الله.

ـ كيف؟!.. أين؟..

ـ نور يخطف الأبصار، يشع فى منطقة من السماء تقع فوق البيت الأبيض.

فقال له الروسى:

ـ يا لك من دجال!

ـ اخرس أيها السفاك.

ـ سندفنكم أحياء.

ـ سندفنكم أمواتا.

فهتف رجل الفراش متأوها:

ـ الغوث!

فصاح به ذو البدلة السوداء:

ـ هأنتذا تسمع كل كلمة تقال.

ـ أسمع وشا، لعله ضيق الشرايين، إلىّ بقليل من الويسكى...

ـ معك عملة صعبة؟

ـ ولا سهلة!

ـ كف عن شرب الشاى فإنه مثير للأعصاب.

ـ إنه يهبنى أطيب ساعات اليوم!

وهتفت الممثلة بنرفزة:

ـ لا أستطيع أن أعمل فى هذا الجو الصاخب.

فقال رجل الفراش بقلق:

ـ من الحمق أن نترك هذين العملاقين يتخاصمان.

فقال ذو البدلة السوداء:

ـ منذا يجزم أين تقع المصلحة؟

وتقدمت الممثلة من رجلى الفضاء وقالت وهى تشير إلى الأم:

ـ يوجد صغار نيام!

فكظم كل حنقه. وقال الروسى بوجه متجهم مخاطبا زميله:

ـ تهانى..

فقال الآخر بازدراء:

ـ تهانى..

وذهبا مع الممثلة فاتخذا لهما موقفا.

* * *

ومن وراء الستارة خرجت فتاة جميلة فى العشرين من عمرها، فى منى جيب، معلقة حقيبتها بكتفها، ووقفت فى وسط الحجرة وقالت:

ـ أنا فتاة مثقفة، أتقن العربية والإنجليزية وأعمال السكرتارية، أريد وظيفة سكرتيرة.

هرش رجل الفراش ذقنه. أما ذو البدلة السوداء فقد سألها:

ـ ألم تقيدى نفسك فى إدارة القوى العاملة؟

ـ بلى . .

ـ عليك أن تنتظرى دورك .

ـ طال الانتظار ، أريد وظيفة حرة .

فقالت لها الممثلة :

ـ أعرف شخصا مهما فى حاجة إلى سكرتيرة !

ـ إنى مستعدة لمقابلته فى الوقت الذى يحدده .

فقال رجل الفراش :

ـ ولكنك لا تعرفين عنه شيئا؟

ـ أعرف عملى وكفى .

فقال الرجل بتأثر :

ـ فكرى قليلا ، إنى أحدثك بلسان أب .

ـ كأنك يا سيدى تخاف علىّ؟

ـ الناس أشرار يا بنتى وأنت صغيرة السن .

ـ لست صغيرة .

ـ ما زلت فى طور البراءة !

ـ لست هشة ولا خوف علىّ .

ـ إنك تعرضين نفسك لخطر فادح .

ـ إنى أحتقر هذا الإشفاق !

ـ إنى أب . .

ـ بل جد ، وأقدم من ذلك !

ـ سامحك الله .

ـ سأجد فى العمل حريتى وكرامتى .

ـ قد . . قد . . .

ـ لا أسمح لأحد بالتدخل فى شئونى .

ـ ثمة أخطار .

ـ أخطار ! . . ألم تسمع عن غزاة الفضاء ؟ !

ـ معذرة يا آنسة .

فقال ذو البدلة السوداء :

ـ ليتك تعرف نعمة السكوت .

فقالت لها الممثلة :

ـ انضمى إلينا مؤقتا ، ثمة شركة فى دور التكوين .

* * *

وتحركت الستارة فخرج من ورائها رجل عجوز أنيق الملبس ، وقف وسط الحجرة وقال بنبرة شبه باكية :

ـ يا بنى ، عد إلى أبيك . . طلباتك مجابة .

فسأله ذو البدلة السوداء :

ـ متى اختفى ؟

ـ منذ أسبوع . .

ـ بحثت عنه فى مكانه ؟

ـ لم أترك مكانا واحدا .

ـ ما عمره ؟

ـ ستة عشر عاما .

ـ ما مشكلته ؟

ـ كل شىء ولا شىء بالذات . .

ـ رأى ، سلوك ، ذوق ، هه ؟

ـ نعم . وعلم الله ما راعيت إلا مصلحته .

فقال له رجل الفراش :

ـ إنى أرثى لك .

ـ شكرا .

ـ ليس زماننا بزمان الآباء .

ـ زمان قذر .

فصاح به ذو البدلة السوداء :

ـ لا تسب الزمان فهو الدولة .

فعاد الرجل يردد بهدوء حزين :

ـ يا بنى ، عد إلى أبيك . . طلباتك مجابة .

واختار لنفسه موقفا جنب حامل الكتب .

* * *

من وراء الستارة خرجت فتاة صعيدية حاملة مقطفا كبيرا ، تبعها على الأثر صعيدى فى الخمسين ، وقفا فى وسط الحجرة فسألته الفتاة :

ـ لم جئنا إلى هنا يا أبى؟

فهوى بكفه على وجهها وصاح :

ـ لأنقذ شرفى من الفساد .

ندت عن الفتاة صرخة مدوية . رمت بالمقطف وجرت نحو الفراش فأحاطها الرجل بذراعه . سرعان ما لحق بها الأب ولكى يخلصها من ذراع الرجل انهال على صدره ضربا حتى سحب الرجل ذراعه متأوها . جذبها إلى وسط الحجرة ، طرحها أرضا ، استل خنجرا وانهال عليها طعنا حتى أخمد أنفاسها . ثم دفنها فى المقطف ، وغطاها بخمارها ، وهو يتمتم بتشفٍ :

ـ الآن ردت الحياة إلىّ .

فقال له ذو البدلة السوداء :

ـ ستفقدها وراء القضبان أو فوق المشنقة.

فقال باستهانة:

ـ طظ!

ـ متى تحترم القانون؟

ـ طظ.

وحمل المقطف ومضى به صوب الفراش فدفعه تحته. تأوه رجل الفراش وقال له:

ـ يا لك من وحش!

فقال له بازدراء وهو يرجع إلى وسط الحجرة:

ـ كيف يعد أمثالك من الرجال؟!

ـ كيف طاوعتك يدك على قتل ابنتك؟

ـ يوجد شيء اسمه الشرف.

ـ وتوجد أيضا الحماقة.

فأشهر خنجره مرة أخرى وهو يتساءل في ريبة:

ـ ماذا يحملك على الدفاع عنها؟

ـ ولكن ذا البدلة السوداء بادر إليه فأخذه من ذراعه إلى الناحية الأخرى.

* * *

وترامى عزف أوركسترا وتخت بلدى فى وقت واحد. وخرج من وراء الستارة رجلان، أولهما فى لباس مغنى أوبرا والآخر مغنى بلدى. وقفا فى وسط الحجرة وراحا يغنيان فى وقت واحد، كل بطريقته. فأحدثا صخبا متنافرا مزعجا مضحكا. ولما ختما غناءهما تصافحا ببرود، مغنى الأوبرا فى احتقار لم يفلح فى مداراته، والمغنى البلدى

داري ضحكة أوشكت أن تفلت منه . في أثناء ذلك تقلص وجه رجل الفراش من الانزعاج ، وتساءل :

ـ أبكما مس أم ألم ملح؟

ـ نحن بخير .

ـ لماذا تصرخان؟

ـ غنينا كأحسن ما يكون الغناء .

ـ أكان ذلك غناء؟

ـ أسمعناك الشرق والغرب معا .

ـ ألم يكن الأفضل أن نسمع كلا على حدة؟

ـ أصلنا ننتمي إلى مؤسسة واحدة . .

وزاد الأوبرالي على ذلك أن قال :

ـ أنا المستقبل ، وزميلي الفاضل يمثل الماضي . .

فغضب المغني البلدي وقال :

ـ أنا مغن ، أما هذا الرجل فهو مجنون يصرخ بلا سبب .

وتبادلا صفعتين ، وتوثبا لعراك أشد . . فصاح رجل الفراش :

ـ اذهبا . . اتركاني في سلام .

فقال ذو البدلة السوداء باستياء :

ـ تأدب في مخاطبة المغنين الرسميين!

وأشار إلى الرجلين فأمسكا عن الخصام وذهبا معا إلى الناحية الأخرى .

* * *

وتحركت الستارة فخرج من ورائها طالب ثم شرطي ، وقفا في وسط الحجرة وهما يتبادلان نظرة متوجسة ، وسأله الشرطي :

ـ لم تتسكع فى الطرقات؟

فتساءل الطالب بتحد :

ـ لم تتبعنى كظلى؟

ـ أنا ظل الأشياء المعوجة!

ـ ألا تشم فى الجو رائحة غبار خانق؟

فتشمم الشرطى الجو وقال :

ـ فى الجو غبار خانق!

ـ إنى أبحث عن هواء نقى . .

ـ ولكنك بتسكعك تثير مزيدا من الغبار الخانق . .

فضحك الطالب ضحكة جافة وقال :

ـ الليل ينشر جناحيه بينا الشمس ما زالت فى كبد السماء فما تفسيرك لذلك؟

ـ لعل الليل أسرع أو أن الشمس تباطأت . .

ـ فما علاقة ذلك بتحديد مرات السقوط؟

ـ مثل علاقته بإهدار المال بلا حكمة . .

ـ واضح أنك تهذى .

ـ وأوضح منه أنك قليل الأدب .

وقذف الطالب الشرطى بطوبة فلم تصبه ، ولكن أصابت رجل الفراش فتأوه دون أن يرفع رأسه عن الجريدة . تراجع الشرطى خطوات ، لوح بهراوته استجماعا لقوته ولكنها فى حركاتها العشوائية أصابت رجل الفراش فى قدمه ومنكبه فتأوه مرة أخرى . تبادلا الضرب حتى نزفت دماؤهما فتباعدا وهما يترنحان من الإعياء والإنهاك . وهتف رجل الفراش :

ـ وما ذنبى أنا؟

فقال ذو البدلة السوداء:

ـ لا تفتأ تتدخل فيما لا يعنيك!

ـ ولكن القتال يدور فى حجرة نومى. .

ـ عال فأنت أصلح شاهد للإدلاء بما رأى، ما سبب المعركة؟ ومن البادئ بالضرب؟

ـ للمعركة أسباب غير عادية.

ـ مثال ذلك؟

ـ الغبار والتسكع والليل والشمس.

ـ يا لك من شاهد فاجر!

ـ أقسم لك. . .

فقاطعه بحدة:

ـ ومرات السقوط فى الامتحان ألم تسمع بها؟

ـ إن سمعى ثقيل كما تعلم.

ـ هأنتذا تعود لادعاء الصمم، واضح أنك مغرض!

ـ علم الله. .

ـ فمن الذى بدأ الضرب؟

تلقيت ضربتين متعاقبتين، ولكن تعذر علىّ تحديد المصدر البادئ!

ـ فاجر، ألم أقل إنك شاهد فاجر؟!

ـ دعنا من التحقيق.

ـ دعنا من التحقيق؟!

ـ واضح أن أعصابهما تحتاج إلى عقاقير فعالة.

ـ الصيدليات ملأى بالعقاقير.

ـ الحاجة ماسة إلى طبيب لا إلى شرطى.

ـ ألست طبيبا؟ . . إنى أناقشك طيلة الوقت باعتبارك طبيبا!
ـ أنا طبيب حقّا، ولكنى فى إجازة مرضية . .
ـ أصبحت قادرا على الحركة فى بيتى فأنا أغادر الفراش وقتما أشاء، ولكن تلزمنى بضعة أيام راحة قبل أن أمضى إلى الخارج لمزاولة نشاطى المعتاد.
ـ حسنا، لا تبدد قواك فى الثرثرة حتى تسترد صحتك.
ومضى الرجل إلى الطالب والشرطى فأخذهما إلى موقف فى الناحية الأخرى.

* * *

وتحركت الستارة فخرج من ورائها زنجى وعربى مسلح، وقفا فى وسط الحجرة وقال الزنجى:
ـ المشوار طويل فيما يبدو.
ـ أجل. . إنه يبدو كذلك.
ـ أين أنت ذاهب؟
ـ إلى آسيا، وأنت؟
ـ أنا متردد بين أمريكا وإفريقيا.
ـ وما مشكلتك؟
ـ فى أمريكا يحاصرنى الاضطهاد باعتبارى الأقلية، وفى إفريقيا يحاصرنى باعتبارى الأغلبية.
ـ يا له من اضطهاد كالقدر! ما سببه؟
ـ لأنى أسود، هكذا يقال.
ـ أن تضطهد وأنت أقلية فتلك رذيلة شائعة، ولكن كيف تضطهد وأنت الأغلبية؟
ـ ثمة رجل أبيض يحتكر الاضطهاد، ويمارسه حيثما وجد.

ـ ولكنى أراك لا تحمل سلاحا؟

ـ كان لنا زعيم يدعو إلى الحب والسلام.

ـ وهل استجابوا له؟

ـ قتلوه غيلة!

ـ ما كان أجدره أن يقتل وهو يقاتل.

ـ آمن بأن الحب أقوى من جميع الأسلحة.

ـ لا مكان إلا لنوعين من الإنسان، واحد يقاتل بقلب ملؤه الشر، وآخر يقاتل بقلب ملؤه الخير.

ـ لعلك من النوع الأخير؟

ـ لعلى.

ـ وما مشكلتك أيها المقاتل؟

ـ لقد سرقت.

ـ سرقوا مالك؟

ـ سرقوا وطنى!

ـ وطنك؟!

ـ بجباله وأنهاره وحقوله وتاريخه ثم قذفوا بى إلى العراء.

ـ أى قطاع طرق؟!

ـ وراءهم يقف الذين يضطهدونك.

ـ لذلك تحمل السلاح؟

ـ ولذلك يجب أن تحمل السلاح.

ـ ولكن أين أجده؟

وهنا قال رجل الفضاء الروسى:

ـ تجده عندى إذا أردته.

ـ ولكنى لا أملك ثمنه .

ـ يمكن الاتفاق على ذلك دون إرهاق .

فصاح رجل الفضاء الأمريكى مخاطبا الزنجى :

ـ تجنب هذا الرجل فإنه لم ير الله فى السماء .

فقال رجل الفضاء الروسى :

ـ أحذرك من أضاليل هذا الزميل فقد زعم أنه رأى إلها أمريكيا .

ـ لم أقل إنه يحمل الجنسية الأمريكية ، ولكن ثبت لى أنه إله العالم الحر .

فسأله الزنجى :

ـ هل آنست عنده ازدراء للسود؟

ـ إنه نور فطبيعى أن يفضل من عباده من على صورته .

ـ هل أدركت فى حضرته سر ذلك كله؟

ـ إن حكمته تجل عن أفهامنا ، إنه فوق التصور والخيال ، آه لو رأيته فى مقامه السنى فوق البيت الأبيض !

فصاح رجل الفضاء الروسى :

ـ ألم أقل لك إنه دجال؟

وقال العربى المسلح :

ـ دعونا من السماء ، على الأرض تُسرق أوطان ويضطهد أبرياء ، وعلى المسروق والمضطهد أن يحملا السلاح ، وأن يتعاونا مع من يعطيهما السلاح ، وأن تفسر حكمة الله على ضوء ذلك !

ـ أنت شيوعى !

ـ أنت إمبريالى !

ـ أنت ظالم !

ـ أنت أسود !

ـ أنت دجال!

ـ أنت سفاح!

وتأوه الرجل فى فراشه وعيناه لا تتحولان عن الجريدة، فسأله ذو البدلة السوداء:

ـ مالك . . ماذا تريد؟

ـ أريد سلاحا!

ـ ولكن إجازتك المرضية لم تنته بعد.

ـ أريد سلاحا!

ـ اصبر . .

ـ ألم تسمع ما قيل؟

ـ سمعت واقتنعت، ولكن إجازتك لم تنته بعد.

ـ إنى أقرأ فى رأسك أفكارا غريبة!

ـ إن أردت الصراحة فإن تعليقاتك المتكررة لا توحى بالثقة!

ـ لعلك لا تعرفنى على حقيقتى.

ـ إنى أعرفك أكثر مما تتصور!

ـ أنا رجل مخلص ومستعد للقتال.

ـ ولكنك غير مدرب على استعمال السلاح.

ـ إذن أتدرب.

ـ اصبر حتى تنتهى إجازتك.

ـ طيب . . أعطنى كأسا من الويسكى . .

ـ معك عملة صعبة؟

فتنهد الرجل بصوت مسموع، وعند ذاك قال له رجل الفضاء الأمريكى:

ـ أتريد السلاح حقّا؟

ـ أجل . .

ـ والويسكى؟

ـ أجل . .

ـ عهد الله أعطيك ما تريد من سلاح وويسكى .

ـ حقّا؟ !

ـ كلمتى ميثاق!

ـ ولكنى لا أملك نقودا .

ـ لا يهم .

ـ أتعطينى ما أريد بلا مقابل؟

ـ بشروط لا تستحق الذكر ، انتظر . .

وتحرك متجها نحو الفراش، ولما بلغه وجد ذا البدلة السوداء فى انتظاره، فقال له :

ـ أريد أن أحادث هذا المريض على انفراد .

فقال ذو البدلة السوداء :

ـ ليس بينى وبينه سر!

ـ المرضى فى وطننا الأمريكى يتمتعون بحريات هائلة!

ـ فقال الزنجى :

ـ كذاب!

تحول نحوه غاضبا، ولكن ذا البدلة السوداء حال بينهما، ثم أوسع لهما مكانا بين الآخرين .

* * *

من وراء الستارة خرج رجل قصير نحيل، يلفه الحياء حتى بدا

كطفل، وقف فى وسط الحجرة و راح ينظر فيما حوله بارتباك. همّ بالكلام مرة ومرة ولكنه لم ينبس. وإذا برجل جديد يخرج من وراء الستارة. ضخم مهيب ذو لحية مدببة، اتخذ موقفه أمام الرجل الأول فأخفاه عن الأنظار وقال بنبرة متعجرفة:

ـ أنا رجل ألمانى من بون.

فسأله الألمانى الأول:

ـ ألديك معلومات جديدة عن المارك؟

فقال بالنبرة المتعجرفة:

ـ لا أقيم الآن فى ألمانيا، لم أجد هناك المعاملة اللائقة، أنا مواطن عالمى، ولدى اختراع كيماوى مذهل.

فسأله رجل الفراش:

ـ أله فائدة فى تجديد الشباب؟

وسأله الزنجى:

ـ هل يجدى مفعوله فى تهذيب الخلق الإنسانى؟

وسألته الأم:

ـ هل ينفع غذاء للأطفال؟

فقال:

ـ إنه مسحوق غامض، يكفى الجرام منه لإبادة خمسين مليونا من البشر.

هب الجميع فى اهتمام ساحق. حتى الأمريكى والفيتنامى استيقظا ووثبا واقفين. قال الألمانى الأول:

ـ لعلهم جهلوا مقاصدك أيها الأخ العبقرى فلم يحسنوا معاملتك، عد إلى وطنك.

ولكن رجل الفضاء الأمريكى قال :

ـ أيها الأخ العبقرى، أمريكا هى وطن العلماء، عندنا برج بابل يعيش فيه العلماء من مختلف الأجناس عيشة الأباطرة، اذهب إلى وطنك الحقيقى أمريكا!

وقال له رجل الفضاء الروسى :

ـ ليكن مسحوقك فى خدمة الملايين الكادحة لا فى خدمة حفنة من مصاصى الدماء.

وقال له العربى :

ـ يلزمنى ملليجرام من مسحوقك العبقرى!

وسأله ذو البدلة السوداء :

ـ هل سبق لك زيارة معبد الكرنك تحت شمس الشتاء المشرقة؟

فقال الألمانى بعجرفة :

ـ تلزمنى مهلة للتفكير.

وذهب إلى ناحية الواقفين فاتخذ مكانا. وبذهابه ظهر مرة أخرى الرجل القصير النحيل.

وقال له رجل الفراش :

ـ كان المنتظر أن تبدأ أنت بالكلام.

فابتسم فى حياء دون أن ينبس فسأله :

ـ بالله ماذا يمنعك من الكلام؟

فتغلب على حيائه وقال :

ـ أعتقد أننى بصدد اكتشاف طريقة ناجعة لمعالجة السرطان.

وساد صمت شامل حتى واصل حديثه قائلا :

ـ لقد جربتها على مرضى كثيرين فنجحت بنسبة ٤٠٪، ولكنى

فى حـاجـة إلى مـزيد من البـحث والتـجـريب وتلزمنى تكاليف باهظة!

وساد الصمت . صمت ثقيل، حتى قال الفرنسى هامسا :

ـ هذا الرجل يستحق التشجيع، ولولا أزمة الفرنك . . .

فقال الألمانى :

ـ إنه جدير بالتشجيع ، ولكن من أدرانا أنه ليس دجالا؟

فقالت الممثلة :

ـ إن تكشف عن دجال فأنا أرشحه لتمثيل دور فى فيلمنا المشترك .

وقال رجل الفضاء الأمريكى :

ـ أبحاث السرطان متقدمة عندنا . .

فقال رجل الفضاء الروسى :

ـ يمكن أن نستضيفك عاما فى المعهد الطبى الشيوعى .

فصاح رجل الفضاء الأمريكى :

ـ يمكن أن نستـضيـفك عـامين، ولكن إذا زرت روسيـا تعـذر عليك دخول بلادنا .

ونفخ رجل الفراش بصوت مسموع فسأله ذو البدلة السوداء :

ـ ماذا تشكو؟

ـ أريد كأسا من الويسكى .

ـ تمر بك الأحداث وأنت لاه عنها بشهواتك!

ـ أعطنى سلاحا . .

ـ تريد أن تسكر وتطلق النار على غير هدى!

وأشار إلى الرجل القـصير النحيل إشارة خاصة فمضى ليتخذ موقفا بين الواقفين .

وتحركت الستارة فخرج من ورائها رجل ملفوف فى كفن لا يظهر منه إلا رأسه، وقف فى وسط الحجرة وقال:

ـ أنا المدير العام لمؤسسة م. م. م.

فقال له رجل الفراش:

ـ تشرفنا يا فندم.

ـ انتقلت إلى رحمة الله على أثر نوبة قلبية أصابتنى وأنا جالس إلى مكتبى.

ـ ليرحمك الله.

ـ الموت أكبر كارثة فى الوجود، أكاد أجن كلما تصورت أن العالم سيمضى فى طريقه عقب اختفائى كأننى لم أعايشه دقيقة واحدة.

ـ أكنت تتوقع أن يتوقف من الحياة إكراما لك؟

ـ هذه هى مأساة الوجود الحقيقية التى تفقده أى معنى من المعانى!

ـ صدقنى فإن العالم مثقل بهمومه بحيث يغفر له ألا يشعر بموتك.

ـ ذهبت الحياة بجمالها وسحرها وآمالها!

ـ ليرحمك الله.

ـ ما لقلبك جامدا هكذا، حتى الحيوان يحزن.

ـ حزنى للحياة لم يترك فى قلبى موضعا للحزن على الموت!

ـ مت وحيدا وهأنذا أحزن وحدى.

ـ لتكن الجنة مثواك.

ـ وأنا والد س و ص بالجامعة، وشقيق أ بمؤسسة م. م. م.، وعم د. بمؤسسة م. م. م.، وابن خالة ز بمؤسسة م. م. م.، وستشيع الجنازة من مسجد عمر مكرم فى تمام الثانية عشرة ظهرا ولا عزاء للسيدات.

ـ سأعزى بتلغراف.

ـ ولم لا تشيع جنازتى بنفسك؟

ـ إنى مريض كما ترى .

ـ تستطيع أن تشيع جنازتى لو بك رغبة فى ذلك .

ـ أخشى أن أصاب بنكسة .

ـ أنانى لا تفكر إلا فى نفسك .

ـ لا وقت عندى للتفكير فى نفسى ولا فيمن يموت .

ـ ليت يومك كان قبل يومى .

ـ أنتم السابقون ونحن اللاحقون . .

وبدأ الرجل يتحرك ببطء ليتخذ موقفه بين الجماعة . وفى أثناء سيره قال ذو البدلة السوداء :

ـ مات رجل من جيل الثورة المضادة .

فقال رجل الفضاء الأمريكى :

ـ فقدنا صديقا ذا استعداد طيب للتفاهم .

وقالت الممثلة :

ـ نقص رواد السينما رجلا ولا كل الرجال .

* * *

وتحركت الستارة فخرج من ورائها رجل وجيه بدين أنيق الملبس رغم ضخامته الفذة ، وقف فى وسط الحجرة ثم بسط صحيفة وراح يقرأ منها بصوت جهورى :

ـ من واجبى ، من حقى ، أن أقول رأيى كما يجدر بصحفى يحترم نفسه ويحترمه الجميع ، وأن أصيغه بالوضوح الكامل لنخترق الظلمات إلى رؤية مضيئة لعلنا نهتدى إلى مرفأ آمن فى هذا البحر العاصف الذى تتلاطم أمواجه كجبال من الظلام ، سأقول الحق بوضوح مهما كلفنى ذلك من جهد ومن تضحية . لذلك أقول لكم :

الوعى قضية، تسير مسارها الطبيعى إلى نقيضها وهو اللاوعى، وعلى أثر تقدم مطرد يتكون تركيب جديد من النقيضين هو المرض. بمعنى آخر الوعى + اللاوعى = المرض. إن يكن عصابا فهو مرض نفسى، وإن يكن ذهانا فهو مرض عقلى. ذلك أن كل شيء يخضع فى النهاية للديالكتيك. ولا يلبث التركيب الجديد (المرض النفسى أو العقلى) أن يتحول إلى قضية جديدة تبحث بدورها عن نقيضها كما تبحث المراهقة عن عريس، ونقيض المرض هو الصحة النفسية، ثم يجمعها تركيب جديد آخر بحكم حتمية الديالكتيك، وهذا التركيب الجديد يتكون من المرض والصحة، مرض ديالكتيكى وصحة ديالكتيكية، وهى حال لا هى صحة ولا هى مرض، وإذا ترجمناها إلى لغة فلسفية أمكن أن نطلق عليها «حال وجودية». . ويغلب عادة أن تكون من نوع الوجود فى ذاته، ولكن يتدخل قوى قهرية باغية تتحول إلى نوع آخر هو الوجود لذاته، ويخشى فى تلك الحال أن تتحول إلى وضع أجوف أو ما يسمى فى الهندسة بالفراغ، فراغ مشحون بالقلق السرمدى، ولا علاج لذلك إلا بالمزيد من الديالكتيك. هذه هى حقيقة المسألة بلا حشو ولا إسهاب ولا موجب له، شرحتها متوخيا البساطة والوضوح، بلغة شعبية جديرة بمخاطبة شعب عظيم يمر بلا شك بمحنة عصبية، ويتوثب لقهر ما يعترض سبيله من عقبات، مصمما على الصمود والنجاح، ألا هل بلغت؟

أعقب كلمته صمت، استمر حتى خرقه رجل الفراش قائلا:

ـ شكرا يا سيدى، ولكن ثمة أسئلة حائرة أود أن أوجهها إليك.

فقال بهدوء:

ـ صناعتى هى الكتابة لا الكلام.

ـ ولكنها أسئلة ملحة يا سيدى.

ـ اكتبها فى ورقة وسأجيب عليها كتابة.

وتكرم بإعطائه ورقة وقلما فتناولهما الرجل وسجل أسئلة ومد بها يده إليه. قرأها الصحفى بعناية ثم سجل بدوره إجاباته عليها ثم راح يقرؤها:

- بالنسبة للسؤال الأول الجواب: محتمل.

بالنسبة للسؤال الثانى الجواب: بين بين.

بالنسبة للسؤال الثالث الجواب: نعم ولا.

بالنسبة للسؤال الرابع الجواب: لعل وعسى.

بالنسبة للسؤال الخامس الجواب: إنه سلاح ذو حدين.

بالنسبة للسؤال السادس الجواب: خير الأمور الوسط..

فتمتم رجل الفراش:

- شكرا يا سيدى.

فرد الصحفى الشكر بهزة من رأسه وانتقل إلى الناحية الأخرى، طوى رجل الفراش الجريدة، ثم احتسى آخر رشفة من الشاى. هبط إلى أرض الحجرة. راح يسوى جلباب نومه ويتثاءب. وفى الحال أحدق به جميع الحاضرين بغير استثناء. جعلوا يدورون حوله مرددين مقاطع من أقوالهم السابقة فى وقت واحد. تخلل دورانهم طلقات نارية، انفجار قنابل، أزيز طيارات، صرخات آدمية. وكلما أتم أحدهم دورته زحف تحت الفراش واختفى حتى خلت الحجرة ولم يعد يبقى بها سواه. وفتح الباب وظهرت عنده المرأة وهى تتساءل:

- شربت شايك؟

فأحنى رأسه بالإيجاب فقالت وهى تختفى فى الداخل:

- أظن آن لنا أن نناقش مشاكلنا العاجلة!

فمضى نحو الباب وهو يتمتم:

- استعنا على الشقا بالله.

روح طبيب القلوب

تفحصها الرجل باهتمام فتلقت نظراته بعينين حذرتين مستطلعتين. كان يجلس مسند الظهر إلى باب الضريح الصغير على حين تربعت هى بين يديه. لم يكن فى ساحة الضريح الصحراوية سواهما أحد فى صحبة شعاع الصباح الباكر. وكان الضريح صغيرا مثل زنزانة، ولا تناسب بين جسم الرجل النحيل وبين عمامته الخضراء الكبيرة ولحيته الكثيفة السوداء، وثمة تناقض أشد بين جلباب الفتاة الرث القذر وقدميها الحافيتين وبين جمال وجهها الآسر. أشار الرجل إلى الضريح وقال:

ـ تبارك ذكره، كان بطب الجراح إعجازه وسره.

فتمتمت الفتاة بسذاجة:

ـ تبارك ذكره.

ـ لعل الذى جاء بك إليه جرح عز على البشر شفاؤه؟

فتمتمت فيما يشبه البلاهة:

ـ نعم.

فسألها بارتياب:

ـ كم سنك يا فتاة؟

ـ لا أدرى.

ـ ولكن أمك تدرى؟

ـ لم أر لى أما..

ـ توفاها الله؟

ـ لا أدرى .

ـ وأين أبوك؟

ـ لم أر لى أبا .

ـ وأين تعيشين؟

ـ فى الدنيا!

ـ ماذا تعملين؟

ـ أسرح بالفاكهة الفاسدة يجود بها الفاكهى أو يبيعها بثمن بخس .

ـ ولكنها تجارة فاسدة!

ـ لها زبائن يتنافسون فى الحصول عليها .

ـ وأين تقيمين؟

ـ فى الخلاء صيفا وتحت البواكى شتاء .

ـ أتتحملين تقلب الجو؟

ـ وهل تقلب الجو يؤذى؟

وخفض الرجل صوته وهو يسألها :

ـ وهل صنت شرفك يا فتاة؟

ـ شرفى؟!

ـ ألا تعرفين معنى الشرف؟

ـ الشرف؟!

فتردد لحظة ثم تساءل :

ـ ألم يغرر بك شاب؟

ـ يغرر بى؟!

ـ يخدعك لينال منك مأربه؟

ـ نحن نعمل معا ونلعب معا وننام معا!

ـ يا للعنة!

ـ اللعنة؟!

ـ لعلك قصدت صاحب الضريح مطاردة بعذاب الضمير!

ـ الضمير؟

ـ لا تعرفين الضمير أيضا!

ـ أيضا!

ـ أأنت راضية عن حياتك؟

فقالت بحماس:

ـ الحياة جميلة على الرغم من كثرة المشاجرات.

ـ الشجار إذن هو ما يقلقك؟

ـ كلا، إنه يهب الحياة مذاقا طيبا!

فنفخ الرجل متسائلا:

ـ ما دينك يا فتاة؟

ـ دينى؟!

ـ ألا تعرفين الدين؟

ـ الدين!

فسألها بحدة:

ـ ماذا جاء بك إلىّ؟

ـ أنت الذى أمرتنى أن أجلس فجلست.

ـ ولكنى رأيتك قادمة نحوى؟

ـ نحو الضريح!

ـ لماذا؟

ـ ظننت أنه يصلح مأوى لى .

ـ أأنت بلهاء أم مجنونة؟

لاذت الفتاة بالصمت ، فقال :

ـ إنك تعيشين فى الخلاء صيفا وتحت البواكى شتاء فماذا جعلك تبحثين عن مأوى؟

بدا أنها تهم بالكلام ، ولكنها أطبقت شفتيها راجعة إلى الصمت فغمغم الرجل فى ضجر :

ـ إنك شيطانة !

فسألته ببساطة :

ـ من أنت؟

فقال بغضب :

ـ لا يجهلنى إلا الشياطين!

ـ ماذا تعمل؟

ـ أنت لا تعرفين الشرف أو الدين فكيف تدركين معنى الولاية؟

ـ لماذا أنت غاضب؟

ـ ملعونة أنت فى الدارين!

ـ الدارين؟

ـ فى الدنيا والآخرة .

ـ اعرف الدنيا ولكن ما الآخرة؟

ـ اغربى عن وجهى!

نهضت الفتاة قائمة . سقطت من داخل الجلباب بين قدميها قطعة حلّى . انحنت بسرعة فالتقطتها ، ولكن يد الولى قبضت على ساعدها بقوة ثم وثب قائما وهو يقول :

ـ ما هذا؟ !

هتفت به أن يطلق يدها، ولكنه قبض على منكبيها وراح ينهرها بعنف فتساقطت قطع الحلى حتى استقرت على الأرض كنزا صغيرا. وفى تلك اللحظة جاء خادم الضريح فرأى الصراع بين الفتاة والولى ورأى الكنز، ردد البصر بينهما ثم حملق فى الكنز متسائلا فى ذهول:

ـ ماذا يحدث؟ !

فقال الولى:

ـ لصة من صعلوكات الطريق.

ـ ماذا جاء بها إلى هنا؟

ـ توهمت الشيطانة أنه يمكن إخفاء سرقتها فى الضريح.

ـ وماذا تنوى أن تفعل بها؟

ـ ما ينبغى فعله.

وولولت الفتاة:

ـ دعنى وشأنى.

فصاح بها:

ـ اخرسى يا لصة.

ـ يدك تهشم عظامى.

ـ من أين لك هذه الحلى؟

ـ إنها ملكى!

ـ ورثتها عن أهلك؟

وعاد خادم الضريح يسأل:

ـ ماذا تنوى أن تفعل بها؟

ـ ما ينبغى فعله.

ـ وما الذى ينبغى فعله؟
ـ علينا أن نسلمها للشرطة .
ـ أليس من الجائز أن تكون بريئة؟
ـ ستتكفل العدالة بإظهار الحقيقة .
ـ ولكن العدالة عمياء يا ولى الله .
ـ من أين لها هذه الحلى؟
ـ الله يرزق من يشاء بغير حساب .
ـ أترى أن نطلقها؟
ـ لن تكون بمأمن من قطاع الطرق .
ـ لم يبق إلا أن أضعها تحت رعايتى!
ـ ولكنك ولى وهيهات أن تحسن رعاية الأمور الدنيوية .
فقال الولى بارتياب :
ـ أرى أحلاما غريبة تراودك!
ـ لعلها نفس الأحلام التى تراودك!
وتوسلت الفتاة قائلة :
ـ دعنى أذهب . .
فقال لها الولى وهو يخفف من قبضته عليها :
ـ لا أمان لك فى دنيا الشرور .
وقال لها خادم الضريح :
ـ سأفتح لك الضريح كما تشائين!
ولكن الفتاة قالت بإصرار :
ـ أريد أن أذهب .
وحاولت أن تخلص ذراعيها ، ولكن الولى شدد قبضته ، وأقبل

خادم الضريح يساعده. تبادلا نظرة من فوق رأس الفتاة. قال خادم الضريح:

- يلزمنا وقت لتبادل الرأى.

وتبادلا غمزة حملا الفتاة على أثرها إلى داخل الضريح. غابا فى الداخل دقائق ثم خرجا يتفصدان عرقا.

أغلق الخادم الباب، ثم مضى إلى الولى وهو يقول:

- الخير فى الاتفاق.

- لا تنس أنها جاءت إلىّ بقدميها.

- بل كانت تقصد الضريح.

- اكشف أفكارك.

- نتقاسم الغنيمة!

- من العدل أن...

ولكن خادم الضريح قاطعه بحزم:

- نتقاسم الغنيمة!

فصمت الولى قليلا، ثم تساءل:

- وماذا نفعل بالفتاة؟

- نطردها، ونهددها بالويل إن عادت..

- قد...

- إنها سارقة ولن تلجأ إلى الشرطة..

- قد تحرض علينا عصابة من الأشرار لا قبل لنا بها.

- أترى من الأفضل أن نتخلص منها؟

- ماذا تعنى؟

- أن نقتلها!

ـ نقتلها؟ !
ـ ثم ندفنها فى الضريح وهو خال كما تعلم!
فقال الولى باضطراب :
ـ ولكن لا قلب لى على القتل!
فقال الخادم بارتياح :
ـ ولا قلب لى أيضا . .
ـ فما العمل إذن؟
وتفكر فى صمت مليا حتى قال خادم الضريح بظفر :
ـ الرأى أن نستعين بصديقنا الشرطى!
ـ فكرة طيبة . .
ـ وهى المخرج الوحيد لنا .
ـ ولكن الغنيمة ستوزع على ثلاثة بدلا من اثنين!
ـ خير من ضياع كل شىء .
وغادر خادم الضريح المكان . غاب فترة غير قصيرة ثم رجع بصحبة الشرطى وهو يقول له :
ـ هذه هى المسألة بلا زيادة ولا نقصان .
هز الشرطى رأسه مفكرا على حين أقبل الولى نحوه قائلا :
ـ عندك الرأى والتنفيذ .
فقال الشرطى :
ـ ولكنها عقدة تحتاج إلى حلال وتحف بها المهالك!
فقال الولى :
ـ سنقبض على الفتاة وتبدأ من فورك التحقيق معها ، ثم تستولى باسم القانون على الحلى ، وعند ذاك نتشفع نحن فى إطلاق

سراحها، وبمجرد أن تفك قبضتك عنها ستطير كالحمامة ولن ترجع إلى هذا المكان ما امتد بها العمر!

فقال الشرطى:

- ولكنى لا أقبل الظلم..

فتساءل خادم الضريح بانزعاج:

- أى ظلم؟! إنها صعلوكة شريرة قطاعة طريق!

فقال الشرطى:

- الظلم أن توزع الغنيمة علينا بالتساوى!

فوجم الرجلان وقال الولى:

- لولا صداقتنا الوطيدة لقمنا بالمهمة وحدنا.

- لولا الضرورة ما لجأتم إلىّ!

- لا تكن سيئ الظن أيها الصديق.

- لى النصف ولكل منكما الربع.

- لا تغال أيها الصديق.

- لا تبددوا الوقت هباء..

وصمت قليلا ثم استدرك:

- ولكن يلزمنا مثمن!

- مثمن؟!

- للوزن والتقييم والفحص.

- ترى هل يفعل ذلك لوجه الله؟

- ماذا فعلت أنت لوجه الله؟

- ولكن سينقص ذلك من نصيب كل منا؟

- من نصيب كل منكما!!

ـ يجب أن نتحمل العبء الجديد بالتساوى .

ـ أنت تتناسى أنك تخاطب القانون!

ـ الرحمة أيها الصديق .

ـ القانون لا يغمض عينيه بلا ثمن .

فقال الولى :

ـ أنا صاحب اللقية .

وقال خادم الضريح :

ـ أنا صاحب الضريح .

فقال الشرطى بحدة :

ـ أهناك رحمة أعظم من أن أهبكم ثروة بدلا من أن أسوقكم إلى السجن؟!

فهبط عليهما صمت واجم مثقل بالتسليم . وتسلم الشرطى الكنز فاقترح أن يذهب إلى المثمن ، ولكن الرجلين أصرا على اصطحابه . وفيما هم يهمون بالذهاب جاء عجوز ضرير قابضا على يد شاب ضرير ، يتلمس طريقه نحو الضريح ، فعدل الرجال الثلاثة عن الذهاب حتى تطمئن قلوبهم . بلغ العجوز باب الضريح فبسط راحته عليه وتساءل بصوت مرتفع :

ـ أين خادم الضريح؟

فأجابه الشرطى :

ـ الظاهر أنه مريض ، اذهب الآن وعد غدا .

ولكن العجوز قال :

ـ الباب المغلق لن يسد سبيل الرحمة . إن الرحمن أمر بها .

وأسند رأس الشاب إلى الباب وهتف :

ـ يا طبيب القلوب الكسيرة، إليك ابنى المسكين، فقد فى حادث بصره، فتوقف فى سبيل الرزق سعيه، وأعيا الأطباء شفاؤه، اشمله بنفحة من بركتك . .

همّ الرجال الثلاثة بالذهاب مرة أخرى لولا صرخة ندت عن الشاب الضرير. وهتف الشاب.

فسأله العجوز:

ـ مالك يا بنى؟

ـ أسمع صوتا!

ـ أى صوت يا بنى؟

ـ صوت طبيب القلوب الكسيرة ولا صوت غيره!

تبادل الرجال الثلاثة نظرة قلقة. ألصق العجوز أذنه بالباب ثم تساءل:

ـ ماذا سمعت يا بنى؟

ـ نفذ صوته إلى أعماق قلبى . .

وقال الشرطى بحدة:

ـ اذهبا اليوم وعودا غدا.

فصاح الشاب:

ـ لن أذهب ، إنه ينادينى!

فقال الشرطى:

ـ أنا الشرطى، وأقول لك إننى لا أسمع شيئا . .

فصاح الشاب بأعلى صوت:

ـ اسكت، دع صوت الرحمة ينفذ إلى قلبى . .

ـ ولكن ذلك مخالف للقانون!

ـ اسكت ، طبيب القلوب يهمس فى أذنى ، تكلم يا طبيب القلوب الكسيرة . .

وجذب صوت الشاب الضرير انتباه بعض الناس فيما بدا فأخذوا يتقاطرون على الساحة بجلابيبهم الزرق وأقدامهم الحافية . وقفوا ينظرون باهتمام ويتبادلون الهمس ، واستشعر الرجال الثلاثة دنو خطر مجهول فحث الولى وخادم الضريح الشرطى على إنقاذ الموقف قبل أن يستفحل الخطر . ضرب الشرطى الأرض بقدمه وصاح بصوت آمر خشن :

ـ أيها الشاب ، كف عن الهذيان .

ولكن الشاب صاح بقوة :

ـ طبيب القلوب ينادينى . .

ـ كف عن الهذيان . .

فقال العجوز بضراعة :

ـ ارحم شبابه وعجزه .

ـ إنه يحدث فتنة .

فقال العجوز :

ـ دعه يسمع ما يطرق أذنيه ، لا ضير من ذلك على أحد . .

وأكثر من صوت من بين الناس قال :

ـ لا ضير من ذلك على أحد ، لا ضير من ذلك على أحد .

أما الشاب فراح يخاطب الضريح قائلا :

ـ يا طبيب القلوب ، إنى أسمعك ، صوتك يملأ قلبى ، يحرك جذور وجدانى ، إنى أصعد فى مدارج السماء يا طبيب القلوب . .

وهتفت أصوات من الشعب :

ـ تبارك الله القادر على كل شىء .

فصاح الشرطى :

ـ تضليل وتحد لقوانين الأمن .

وقال الولى :

ـ اذهب إلى ولى من أولياء الله أو طبيب من أطباء الدولة!

وقال خادم الضريح :

ـ لقد انتهى عصر المعجزات!

فعادت أصوات من الشعب تهتف :

ـ تبارك الله القادر على كل شىء .

ومضى الشاب الضرير فى مناجاته قائلا :

ـ ما أجمل صوتك يا طبيب القلوب! رقيق كالرحمة، هامس كالسر، عزيز كالنور . .

فصاح الشرطى :

ـ دجل يدعو للتجمهر دون إذن من الداخلية!

ولكن الشاب واصل حديثه :

ـ بكل جوارحى أصغى إليك، أصغى إليك يا بشير النور والأمل .

فتقدم الشرطى من الناس خطوات وصاح :

ـ باسم القانون آمركم بالتفرق .

فقال أكثر من صوت :

ـ دعنا نشهد معجزة . .

ـ اذهبوا وإلا حملتكم على الذهاب بالعصا!

ـ لن تمنعنا قوة من شهود معجزة مباركة!

توثب الشرطى للهجوم فتوثب الجمهور للدفاع دون أن يتزحزح عن مواقعه . وإذا بالشاب الضرير يهتف :

ـ ليفتح الباب، ليفتح الباب، بذا أمر طبيب القلوب.

فارتفعت ضجة بين الجمهور وصاحت الأصوات:

ـ افتحوا الباب.. افتحوا الباب..

وهتف الشاب الضرير متشكيا:

ـ إنه يدعونى إليه!

فهتفت أصوات فى حماس جنونى:

ـ افتحوا الباب، الروح تريد أن تنطلق..

فقال خادم الضريح:

ـ لن أفتحه احتراما للأمن والقانون..

عند ذاك بدأ الشاب الضرير يدفع الباب بمنكبه فتعالى هتاف الجمهور. وأراد الشرطى أن يمنعه بالقوة، ولكن الشاب دفعه بعنف فرمى به بعيدا. وانفجر حماس الجمهور فاضطر الرجال الثلاثة إلى التنحى جانبا اتقاء لغضبة لا قبل لهم بها.

وفتح الباب تحت وقع دفعات الشاب القوية فاجتاح الهتاف الساحة كالانفجار. ولم يتردد الشاب فدخل متلمسا طريقه بيديه حتى اختفى عن الأنظار. وساد صمت. صمت عميق شامل. تركزت الأرواح فى الأعين المستطلعة. انعدم الزمان والمكان. وإذا بصيحة تند عن الداخل. ثم ظهر الشاب فى الباب وهو يترنح. رفع يديه صوب السماء وهتف:

ـ أشهد الله أنى أرى!.. أشهد الله أن بصرى رد إلىّ!

وقلب عينيه فى وجوه الذاهلين الصامتين وصاح:

ـ أرى الضياء، أرى الناس، أرى السماء، وقد رأيت الروح!

ـ الروح!

ـ تجسدت لعينى فى صورة فتاة ترسف فى الأغلال..

ـ الله أكبر . . الله أكبر . .

ـ فككت أغلالها بمشيئة الله!

ـ الله أكبر . . الله أكبر . .

ـ وهى تقطر بهاء وجلالا وجمالا . .

ـ الله أكبر . . الله أكبر . .

ـ وبإذن الله سوف تظهر للأعين المؤمنة!

ووثب الشاب نحو الجمهور فوقف فى مقدمته مستقبلا باب الضريح . وساد الصمت مرة أخرى . وتطلعت الأعين نحو الباب فى لهفة عارمة . وفى خطوات وئيدة مترددة ظهرت الفتاة . ظهرت وهى تنظر إلى الجمهور فى ذهول . تعالى الهتاف من الأعماق وركع الجميع فى خضوع .

ـ الله أكبر . .

ـ الله قادر على كل شىء .

ـ يا له من جمال!

ـ يا له من بهاء!

ـ ما لاعين رأت . .

وحان من البعض التفاتة نحو الرجال الثلاثة الواقفين فصرخوا فيهم أن يركعوا فاضطروا إلى الركوع اتقاء للغضب .

وصاح الشاب :

ـ إنى خادمك منذ الساعة وإلى الأبد . .

واستبقت أصوات الجمهور فى خشوع :

ـ رعايتك للغائب .

ـ رحمتك بالمريض .

ـ كرمك للكادح الفقير .

ـ غضبك على الظالمين .

ـ نظرت الفتاة فيما حولها بذهول وتساءلت :

ـ أين أنا؟

فقال الشاب :

ـ من السماء هبطت إلى أرضنا التعسة . .

ـ ماذا أرى؟

ـ أناس طيبون جمعتهم المعجزة بعد أن فرقتهم الهموم .

ـ إنى أشعر بدوار .

ـ إنه دوار من يرثى لحالنا .

ـ كادوا يكتمون أنفاسى!

ـ الويل للأشرار حيث كانوا وحيث يكونون .

ـ اغتصبوا الحلىّ بلا رحمة . .

ـ جواهرك للطيبين لا للمتغتصبين .

ـ أريد الحلىّ . .

ـ ليجد كل مؤمن بك بمكنون جواهره .

انتهز الرجال الثلاثة فرصة انهماك الجمهور وأخذوا يتزحزحون عن مواقعهم بغية الهرب ، ولكن عينى الفتاة وقعتا على الولى وخادم الضريح فأشارت نحوهما هاتفة :

ـ المجرمان!

انقض رجال على الرجلين فدفعوهما أمامهم حتى خرا أمام الفتاة .
سألت الفتاة :

ـ أين الحلى؟

لاذ الرجلان بالصمت فقال صوت من الشعب :

ـ الروح ـ تباركت ـ تتحدث عن جواهر حقيقية !

فقال الشرطى :

ـ للروح لغة لا يدركها أحد من البشر !

ـ إنها تتحدث عن جواهر حقيقية .

فعاد الشرطى يقول :

ـ حذار أن تفسروا كلام الروح على هواكم .

ـ اضربوهما حتى يقرا !

ـ إنى مسئول عن الأمن العام .

ـ اضربوهما حتى يقرا .

فقال الولى مرتعدا :

ـ نحن رجال العهد .

وقال خادم الضريح :

ـ فتشونا إن شئتم .

فصاح رجال من الشعب :

ـ اضربوهما حتى يقرا .

وانهالت عليهما اللكمات كالمطر حتى صاح خادم الضريح :

ـ الحلىّ فى حوزة الشرطى .

تحول الجمهور الغاضب نحو الشرطى فقام الرجل وهو يقول بعجلة ولهوجة :

ـ لقد ضبطهما وهما يتقاسمانها فوضعت يدى عليها باسم القانون . .

وبلا تردد تخلص الشرطى من الحلى فوضعها فى الساحة أمام الضريح، فى موجة هادرة من التكبير والتهليل.

وصاح الشاب:

ـ الآن وضح الحق!

فانخفضت الأصوات رويدا حتى استقر الصمت فاستدرك الشاب قائلا:

ـ أرادت الروح أن تجود ببعض الجواهر على الفقراء فسرقها اللصان ولكن ها هى ذى الجواهر تعود إلى أصحابها!

ـ الله أكبر.. الله أكبر..

ـ وتلك هى رسالة طبيب القلوب إليكم..

ـ الله أكبر.. الله أكبر..

ـ تباركت يا طبيب القلوب.

ـ فلتوزع بالعدل.

ـ تباركت يا طبيب القلوب.

ـ ولتنفق فى الخير.

ـ تباركت يا طبيب القلوب.

وإذا برجل وجيه المظهر يجيء مهرولا. ينظر فيما حوله بذهول حتى تقع عيناه على الحلى فيندفع نحوها كالمجنون هاتفا:

ـ الحلىّ المسروقة!

ولكن الشاب يدفعه دفعة قوية ترجعه القهقرى. وصاح الوجيه:

ـ هذه حليى، وهى مثبتة بالوصف والعيار فى محضر الشرطة..

فتعالت أصوات الشعب:

ـ كذاب!

ـ لص!

ـ شريك المجرمين!

فقال الوجيه:

ـ لنذهب إلى قسم الشرطة.

ـ اذهب إلى الجحيم.

وفيما يضرب الوجيه كفا بكف يقع بصره على الفتاة. حدق فيها ذاهلا وهتف:

ـ أنت!

وهمّ بالانقضاض عليها، ولكن الشاب دفعه دفعة قوية كادت تطرحه أرضا. وصاح به الجمهور غاضبا:

ـ تأدب فى الخطاب يا وقح..

ـ أنت غير جدير بالمثول بين يدى روح كريم.

وتساءل الوجيه فى ذهول:

ـ ماذا جرى للدنيا؟!

ولمح الشرطى فلاذ به قائلا:

ـ أنا صاحب الحلى، اذهب بنا إلى القسم..

فهمس الشرطى فى أذنه:

ـ اصبر، لا جدوى الآن من تحدى الجمهور..

ـ ولكنها لصة صعلوكة!

فانهالت عليه الأكف.

ـ اقطع لسانك يا وغد.

ـ يا مجدف.

ـ يا لئيم.

وسأل الشاب الفتاة :

ـ ما قولك فى هذا الوقح؟

فأجابت الفتاة بسرعة :

ـ إنه حيوان يتمرغ فى تراب الفتيات ويضن عليهن بالملاليم!

فصاح الجمهور الغاضب :

ـ حيوان . . حيوان . .

فقالت الفتاة :

ـ أمواله حلال لكم!

تعالى التهليل والتكبير . هجم عليه رجال أشداء فطرحوه أرضا واستخرجوا من جيوبه جميع نقوده . . وصاح الوجيه :

ـ أيها الشرطى!

فهمس الشرطى :

ـ ماذا يفعل الشرطى بين مجانين؟!

ـ أموالى تنهب بحضرك!

وصاح الشاب :

ـ أمواله كالحلى هبة طبيب القلوب للفقراء!

فصاح الجمهور :

ـ تبارك الروح الكريم!

فقال الشاب :

ـ تقاسموا المال بالعدل . .

وأحاط الجمهور بالشاب وراحوا يتقاسمون النقود والحلى . وجعل الوجيه يهذى قائلا :

ـ ماذا جرى للدنيا؟

وقال الشاب :

ـ الآن تحققت رسالة طبيب القلوب .

وأشارت الفتاة إلى الوجيه والشرطى وخادم الضريح والولى وقالت :

ـ قيدوهم ثم احبسوهم فى الضريح !

ـ هجم الجمهور على الرجال الأربعة فقيدهم ثم حملهم إلى داخل الضريح وأغلق الباب . وسلمت الفتاة المفتاح إلى الشاب قائلة :

ـ أنت خادم الضريح . .

ثم نظرت إلى الجموع وقالت :

ـ اذهبوا بسلامة الله .

على رغمهم غادروا المكان فلم يبق معها إلا الشاب ، خادم الضريح الجديد . تبادلا النظر ، من ناحيته بخشوع ومن ناحيتها بشوق . سألته :

ـ لِم لَم تأخذ من المال نصيبا؟

فقال الشاب بوجد وافتتان :

ـ حسبى أن أكون خادم ضريحك . .

ـ ماذا كنت تعمل قبل أن تفقد بصرك؟

نشأت فى الطريق حتى التقطنى منه العجوز الطيب فعلمنى صناعته وهى تحضير الأرواح العطرية !

ـ كنت من فتيان الطريق؟

ـ أول عهدى بالحياة .

ـ وكيف فقدت بصرك؟

ـ صدمتنى سيارة عابرة !

ـ ولكنه رد إليك فمبارك عليك . .

ـ بفضل الله وفضلك . .

تفكرت قليلا ثم قالت :

ـ الأصوب أن ترجع إلى عملك الأول مع العجوز الطيب .

ـ بل أحب أن أبقى خادما لضريحك . .

ـ أقول لك ارجع إلى عملك . .

ـ أهو أمر ؟

ـ نعم .

ـ سأرجع إلى عملى . .

ـ سأرسل لك بفتاة من الطريق الذى نشأت فيه إذا رأيتها توهمت أنك ترانى . .

ـ ما أجمل أن أرى صورتك على الدوام . .

ـ تزوج بها فهى هبتى إليك . .

ـ سمعا وطاعة . .

ـ وأحسن معاملتها .

ـ سمعا وطاعة . .

ـ ولا تصدق قول الحاسدين فيها .

ـ سمعا وطاعة . .

ـ ولا تفارقها حتى تفارقك الحياة .

ـ سمعا وطاعة . .

ـ اذهب الآن بسلام . .

ـ وددت أن أبقى كظلك . .

ـ اذهب بسلام . .

أحنى الشاب رأسه فى خضوع ، ثم فارق المكان أسيفا حزينا .

وجدت نفسها وحيدة فى الخلاء . تجلت الحيرة فى عينيها .

تساءلت :

ـ ماذا جرى للدنيا؟ !

وقطبت فى غضب :

ـ إما أننى مجنونة ، وإما أنهم مجانين!

ثم فى ذهول :

ـ الجميع يركعون ، يهللون ويكبرون ، بإشارة من يدى يأتمرون . . ماذا جرى؟ !

وبغتة سمعت دفعا يصك باب الضريح من الداخل صكا . تولاها الذعر فأطلقت للريح ساقيها . انفتح الباب بقوة الدفع وانطلق منه الوجيه والشرطى وخادم الضريح والولى . وجعل الوجيه يقول فى صخب غاضب للشرطى :

ـ سأحملك مسئولية المهزلة كلها .

ولكن الشرطى قال :

ـ صبرك ، لم يكن فى الإمكان فعل شىء ، جن الناس وإذا جن الناس تطايرت هيبة الشرطى ، ولكن هيهات أن يفلت مجرم من يدى . .

ـ واللصة الصعلوكة أين ذهبت؟

ـ اعتبرها فى قبضة يدك ، إنى أعنى ما أقول .

ـ وكيف أسترد مالى وحليى؟

فقال خادم الضريح :

ـ لتلجأ إلى القسم .

ولكن الشرطى اعترض قائلا :

ـ كلا ، للتحقيق سراديب أخشاها!

فسأله الولى :

ـ والعمل؟

فأجاب الشرطى :

ـ لى وسائلى الخاصة .

ولكن الوجيه قال :

ـ بل لدى فكرة لو قدر لها النجاح ردت إلىّ أموالى الضائعة!

ـ ما هى فكرتك؟

ـ نلجأ إلى الروح!

ـ الروح؟!

ـ الروح التى سلبت مالى هى التى ترده إلىّ!

ـ ولكن ذاك حلم!

ـ سنعيد تمثيل الرواية!

ـ نفس الرواية؟

ـ ولكن بممثلين من عندنا .

ـ والروح من أين نأتى بها؟

ـ نفس الروح ، وإذا خرجت عن المرسوم لها مزقناها إربا!

* * *

وفى صباح اليوم التالى طلع أول شعاع على الضريح وهو مغلق والولى جالس أسفل بابه . وإذا بعجوز يسحب وراءه شابا ضريرا نحو الضريح . وجاء رجال فاتخذوا مواقفهم فيما يلى الضريح . وغمز الولى بعينه فراحوا يتصايحون متظاهرين بالدهشة .

ـ هل نشهد معجزة جديدة؟

ـ أجل . . إنها معجزة جديدة!

وترامت أصواتهم المرتفعة إلى أطراف المدينة فهرع إلى ساحة الضريح جموع الأمس ملهوفين وعلى رأسهم الشاب . ولحق بهم الشرطى وخادم الضريح ، وتطلعت الأبصار إلى الشاب الضرير . رأوه مسند الرأس إلى باب الضريح وهو يهتف :

ـ يا رب السماوات!

فسأله العجوز :

ـ مالك يا بنى؟

فقال الشاب بانفعال شديد :

ـ أسمع صوتا يا أبى .

فسرت فى الجموع همهمة سرعان ما انقلبت تهليلا وتكبيرا . وتظاهر خادم الضريح بالقلق فنادى الشرطى بنبرة تحريض :

ـ أيها الشرطى!

ولكن الشرطى أجاب بإذعان :

ـ كفانى ما لقنت أمس من درس ، فلتكن مشيئة الله .

فهتفت الجموع هتاف النصر . وصاح الشاب الضرير :

ـ إنه ينادينى!

فصاح الجمهور :

ـ الله أكبر . . الله أكبر . .

ـ إنى مرهف السمع ، إنى رهن الإشارة يا طبيب القلوب الكسيرة .

ـ تبارك الله القادر على كل شىء .

ـ افتحوا الباب ، إنه ينادينى ، افتحوا الباب .

مضى شاب الأمس ففتح الباب بين التهليل والتكبير . دخل الشاب

الضرير ملتمسا طريقه إلى قلب الضريح حتى اختفى عن الأنظار . وساد صمت . صمت عميق شامل . وتركزت الأرواح فى الأعين المتطلعة . وإذا بصيحة تترامى من الداخل وإذا بالشاب يظهر فى الباب رافعا يديه إلى السماء وهو يهتف :

ـ أشهد الله أن بصرى قد رد إلىّ!

فهتف الناس بانجذاب :

ـ الله أكبر . . الله أكبر . .

ـ خلقت الدنيا من جديد ، بنورها وناسها ، فلتتقبلنى خادما لضريحك يا طبيب القلوب .

ـ تبارك الله القادر على كل شىء .

ـ المنة لله ، ما أحلى النور عقب الظلام!

ـ تبارك الروح الكريم . .

وسأله رجل ممن يقفون فى الصف الأول :

ـ ماذا وجدت فى الداخل؟

ـ رأيت الروح يرسف فى الأغلال!

فتساءل شاب الأمس بذهول :

ـ ماذا قيدها بعد أن أطلقتها بيدى؟

ـ قد أخبرت بما رأيت . .

وتتابعت الاستغاثات من الحناجر :

ـ أتم نعمتك يا طبيب القلوب .

ـ يا مفرج الكروب .

ـ يا ناصر الضعفاء والفقراء .

وظهرت الفتاة فى الباب كما ظهرت أمس ، ودوى المكان بالتهليل والتكبير . .

ـ ها هى ذى الروح المباركة .

ـ ترقبوا مزيدا من البركات . .

ـ طوبى للفقراء .

وتساءلت الفتاة :

ـ أين أنا؟

فاستبقت أصوات تجيب :

ـ فى الأرض التى اخضرت بجودك .

ـ ماذا أرى؟

ـ شعبك الشكور .

فقالت بألم :

ـ كادت الأغلال تكتم أنفاسى!

فارتفعت الأصوات غاضبة تتساءل :

ـ من المجرم الأثيم؟

ـ من الجانى الشرير؟

ـ من عدو الأرواح؟

فقالت الفتاة وهى تلحظ المحدقين بها فى يأس :

ـ رمانى فى الأغلال صديق لا عدو ، وبحسن نية لا بسوء طوية!

فانفغرت الأفواه ذهولا فعادت الفتاة تقول :

ـ ما أساء إلىّ إلا سوء الفهم والتأويل!

واصلت الأعين حملقتها فى ذهول وتساؤل :

ـ طرحت لغزا فوقعتم فى حبائله!

ـ ليغفر الله لنا .

ـ غاب عنكم أن الروح لا تتكلم بلغة الدنيا .

ـ ليغفر الله لنا .

ـ وأنها تهب الضياء الخالد لا المال الفانى .

فصاح رجال الصف الأول :

ـ ليغفر الله لنا .

أما الآخرون فوجموا وأطرقوا .

ـ وأنها جاءت لتطهر القلوب لا لتحض على النهب والسرقة !

اندحر الجمهور وغرق فى صمت على حين صاح الآخرون :

ـ ليغفر الله لنا .

ـ هكذا وقعتم فى الضلال ونهبتم المال الحلال !

ـ ليغفر الله لنا .

ـ أطلقوا سراحى أيها الأحباء المخلصون .

وبين التكبير والتهليل أخذ الرجال المحدقون بها يدسون أيديهم فى جيوبهم ويرمون بالنقود تحت أقدامها على حين انكمش الجمهور منقبض القلب والصدر والأمل ، وأخذوا يتبادلون النظرات كمن يفيقون من حلم . واستبطأهم الآخرون فسألهم الشرطى محتجا :

ـ أتضنون بالحرية على الروح الكريم ؟

ولكن واحدا منهم لم ينبس أو يتحرك . وجعل شاب الأمس يحملق فى الفتاة بذهول حتى صاح متأوها :

ـ ماذا أرى ؟

فتطلعت إليه الأبصار فصاح بغضب موجها الخطاب إلى الفتاة :

ـ شد ما تغير كل شىء ، ماذا أرى ؟ !

التصقت به الأبصار وهو يمعن النظر بجنون حتى صاح بتحد :

ـ ما أنت بالروح الكريم !

مـــوقف وداع

ـ ولكننى لا أتعاطى أى مخدر .

ـ لعله دس إلينا فى غفلة منا!

ـ لعله ، ولكننا سنعود إلى وعينا . .

ـ استيقظى يا ذاكرة ، حقًا إن الإنسان بلا ذاكرة هو لا شىء!

ـ هأنتذا تتنبه إلى أننا من فصيلة الإنسان .

ـ لا يتعرى إلا الإنسان . أما الحيوان فيخلق بملابس طبيعية .

ـ من حسن الحظ أن تكون إنسانا ولو سرقت وتعريت وتألمت .

ـ علينا أن نقاوم الذهول وإلا ذبنا فى الخلاء .

ـ وهو خلاء صامت لن يجيب بحرف لو سئل ألف سؤال .

ـ صدقت .

ـ الحق أن وجهك غير غريب ، ولا صوتك .

ـ كذلك وجهك وصوتك .

ـ نحن نتقدم بلا شك .

ـ الذكريات تقبل حتى أكاد أمسك بها ، ولكنها سرعان ما تدبر .

ـ اشحذ جهاز استقبالك .

ـ صه . . ها هى ذى ذكرى ، كأنها عواء! وثمة ظلام كأنما يتكدس فى كهف!

ـ حقًا؟! . . وإنى أكاد أمسك بأرقام محددة . . ترى ما هى؟

ـ وثمة إيقاع شيطانى ، لعله زار ، أتعرف الزار؟

ـ كلا ولكن هناك خطة . . خطة مهمة!

وفرق بينهما صمت . مضى كل منهما يحرك رأسه بشدة . ويتنفس بعمق . ثم تبادلا نظرة حية لأول مرة .

ارتسمت فى وجهيهما الدهشة .

ـ رباه!

ـ عبد القوى!

ـ عبد الواحد!

ـ ماذا حدث لنا أيها الأخ؟

ـ أجل ماذا حدث؟

وساد الصمت مرة أخرى تحت شمس الخريف الدافئة حتى تمتم عبد الواحد:

ـ كنا ماضيين نحو الطريق الزراعى.

ـ أجل رأيناه بالعين على ضوء النجوم.

ـ ثم؟

ـ ثم انقض علينا قطاع الطرق، لا شك عندى فى ذلك.

ـ وسرعان ما غبنا عن الوجود.

ـ آه، تذكرت، كنا قادمين من مخيم البدوى.

ـ ذلك الرجل الكريم الذى استضافنا فى الواحة.

ـ الواحة! . . أجل الواحة . . وقد قضينا وقتا طيبا فى الخيمة . . وتعاطينا . . .

فقاطعه عبد الواحد بحدة:

ـ إنك أنت أصل المصائب!

ـ كلما هفت نفسك إلى لذة مسحت ضعفك فىّ أنا!

ـ أنت الذى شجعته!

ـ لم اشتركت أنت معنا؟

ـ ضقت بالعزلة . .

ـ هى حجتك إذا أردت أن تمسح ضعفك فىّ . .

ـ ولكنك لم تحل مشكلة وجودنا فى الخلاء عرايا بعد؟

ـ يقتضى حلها بالرجوع إلى الوراء قليلا فنحن لم نستكمل الوعى بنفسنا وحالنا بعد.

ـ فليتم ذلك قبل أن نهلك فى الخلاء.

ـ لا تبدد الوقت، ماذا جاء بنا إلى الواحة؟.. لا أظننا من أهل الواحات؟

ـ الثابت أننا من أهل الأرض.

ـ أين كنا قبل أن نذهب إلى الواحة؟.. ولم ذهبنا إلى الواحة؟

فضرب عبد القوى جبهته بكفه وصاح:

ـ شد ما كانت جيوبى ملأى بالنقود!

ـ ولكننا لا يمكن أن نعد من الأغنياء بحال!

ـ صه، ها هى ذى ذكرى تقع فى قبضتى، الاستراحة!.. ألا تذكر الاستراحة؟!

ـ الاستراحة!.. أجل.. الاستراحة والحديقة وبركة البط.

ـ برافو.. والركن القصى حيث قبعت مجموعة من الأفندية؟

ـ أجل.. كانوا يلعبون الورق..

ـ وجعلت أنا أتابع اللعب من بعيد.

ـ وحذرتك من ذلك.

ـ ولكنى لا أملك أن أرى اللعب دون أن أتفرج.

ـ قلت لك ابتعد.

وإذا بأحدهم يسألنى برقة: «أتريد أن تنضم إلينا؟».

ـ وهمست فى أذنك أنهم زملاء وقد يتضامنون عليك..

ـ والخطر لا يخيفنى بقدر ما يستفزنى للتحدى..

ـ سجية مفيدة فى مجالها مضرة فيما عدا ذلك.

ـ ولكنك أنت نفسك لحقت بى فى اللعب!

ـ عندما طالت بى الوحدة!

ـ كلا . . عندما ثبت لديك أن اللعب نظيف وأننى أربح باستمرار!

ـ ليس إلا أننى أكره الوحدة!

ـ وسرعان ما انهمكت فى اللعب . .

ـ وقد ربحت أنت مالا طائلا . .

ـ ثروة! . . أخذتها من أصحابها لأهبها لقطاع الطرق . .

ـ وأعقب ذلك معركة!

ـ رمانى أحدهم بتهمة باطلة فلكمته!

ـ ولكنها اتسعت واضطررت إلى المشاركة دفاعا عنك ونلت نصيبى من الضرب الأليم . .

ـ ولكننا انتصرنا فى الضرب كما انتصرنا فى اللعب.

ـ وبعد أن ورطتنا فيما لا يليق!

استمتع عبد القوى بلحظات من الارتياح على حين مضى عبد الواحد يفكر حتى رجع يتساءل:

ـ ولكن ماذا دفع بنا إلى الاستراحة؟

أفاق عبد الواحد من لحظاته السعيدة فحدجه بنظرة بلهاء. وتساءل عبد الواحد:

ـ أين كنا قبل أن ننزل بالاستراحة؟

ـ الاستراحة . . الواحة . . مؤكد كنا نقوم برحلة.

ـ من أين؟ وإلى أين؟ . . أعمل ذاكرتك الفذة.

ـ ولكنها ما زالت فى قبضة المخدر وعلقة قطاع الطرق!

ـ يحول بيننا وبين إنجاز مهمتنا!
ـ إذن فهنالك مهمة تتطلب الإنجاز؟
ـ صبرك . . دعنى أتذكر بهدوء . .
ـ بهفوة لسان تذكرت أخطر شيء في رحلتنا . .
ـ مهمة . . أى مهمة؟ . . دعنى أتذكر.
ـ لا شك فى أننا كنا فى العاصمة قبل أن ننتقل إلى المدينة.
ـ أجل . . لا شك في ذلك.
ـ وهأنذا أتذكر آخر ليلة لنا فيها ، كنا في زيارة للكهف الذى أقام فيه الوجوديون معرضهم التشكيلى!
ـ صدقت أيها الأخ عبد القوى.
ـ وقابلنا هناك الزميل نوح فأمرنا همسا بأن نذهب من فورنا إلى مستشفى الولادة لمقابلة الدكتور المولّد رئيس وحدتنا السرية ومندوب الزعيم.
ـ وذهبنا إلى المستشفى فانتظرناه فى حجرته حتى يفرغ من توليد امرأة . .
ـ وجاءنا فتحدث معنا عن رحلتنا.
ـ أمرنا أن نسافر إلى الجنوب، ولكن لم لَم نسافر إلى الجنوب رأسا؟
ـ رسم للسفر خطة معقدة، فكان علينا أن نذهب أولا إلى المدينة فالاستراحة ثم الواحة قبل أن نمضى إلى الجنوب.
ـ أجل وحدد لكل مكان وقتا ومدة إقامة، ولكن ماذا كانت المهمة؟
ـ آن لنا أن نتذكر أخطر ما فى رحلتنا.
ـ أذكر أنه انتحى بك جانبا مقدار خمس دقائق فلم أسمع ما دار بينكما.

ـ ألم أحدثك عن المهمة عقب مغادرتنا المستشفى؟
ـ نعم، مؤكد أننى لم أعرف شيئا عن المهمة، ولكنك. . .
ـ ولكننى؟
ـ ولكنك قلت لى ونحن فى الطريق نصف المظلم إننا سنعرف المهمة عندما نصل . .
ـ ذاك يؤكد أننى لم أكن أعرفها وقتذاك .
وهنا صاح عبد القوى متهللا :
ـ قلت إنها فى جيبك، إنه سلمك مظروفا مغلقا لا يجوز فضه قبل الوصول .
ـ أحسنت التذكر . .
وضرب يده على موضع الجيب فأصابت لحم فخذه الضامرة فصاح بحسرة :
ـ يا للداهية السوداء، لقد سرق المظروف فيما سرق من أموالنا!
ـ يا للكارثة!
ـ إنك أنت المسئول عما حاق بنا .
ـ لا تمسح فىّ ضعفك .
ـ اعترف بجنونك .
ـ إنى راض عن نفسى فاعترف أنت بضعفك . .
وتبادلا نظرة نارية، تلاقى فيها الغضب بالتحدى، ولكن عبد الواحد انتزع عينيه يائسا، رمى ببصره إلى الخلاء، ثم تنهد قائلا :
ـ نهاية خليقة بالحشرات!
فقال عبد القوى :
ـ لا تنس مشكلتنا الراهنة، علينا أن نتخلص من ورطتنا!

ـ ولكن كيف؟
ـ لنبدأ من جديد، لنتسول أو نقامر أو نسرق، وهناك تجارة الرقيق الأبيض!
ـ أتتصور أننى أرضى بشىء من ذلك بعد أن اخترت عضوا فى التنظيم، وبعد أن كلفت بمهمة لا يكلف بها إلا الأكفاء؟!
ـ عيبك الأساسى هو الغرور، اعترف بأننا خسرنا اللعبة، ومن حقنا أن نتعلق بأذيال الحياة بأى ثمن . .
فقال عبد الواحد بإباء :
ـ أرفض أن أتعلق بأذيال الحياة بأى ثمن .
ـ ولكن الحياة تستحق ذلك .
ـ لعلى أفضل الانتحار .
ـ أى شىء أفضل من الانتحار .
ـ ليس أى شىء!
ـ لنكن عمليين!
ـ لنكن عمليين ولنفكر فى وسيلة لإصلاح الخطأ وإنجاز المهمة .
ـ بضياع المظروف ضاع الأمل فى ذلك .
ـ لا تتسرع فى الحكم .
ـ حدثنى عن سبيل لمعرفة المهمة . .
ـ فلنستعن بالعقل .
ـ سل عقلك عن سر مدفون فى مظروف مفقود!
ـ إنك لا تحترم العقل ؛ وذلك هو سر تعاستك .
ـ ولكنى لست تعيسا .
ـ ومن آى تعاستك أنك لا تعرف أنك تعيس .

ـ إنى مسلم بمقدرتك فى الجدل، وبسخريتك منى إذا حلا لك ذلك، ولكن من الخير أن توجه قوتك المزعومة إلى حل اللغز الذى تتوقف عليه حياتنا . .

ـ كأنك عازم على الوقوف منى موقف المشاهد أو الشامت؟

ـ اقترحت عليك ما أرى وهو الهرب .

ـ لنمارس حياة وضيعة فى ظل المطاردة؟!

ـ سنكون مطاردين على الحالين!

ـ مطاردة الشرطة لنا شرف لم نستحقه إلا بالعرق . أما مطاردة التنظيم فهى اللعنة الكبرى!

ـ لست راضيا عن دورى الآلى فيه .

ـ ولكنك دخلته مختارا؟

ـ بل لأنك دخلته، ولأنى لم أعتد الحياة بعيدا عنك!

ـ وإذن فعلينا أن نتقبل مصيرنا بالصبر والشجاعة .

فقال عبد القوى متنهدا :

ـ ليكن . . ، حدثنى الآن كيف نعرف المهمة؟

ـ كن معى بكل حواسك، لقد أمرنا بأن ننزل فى المدينة فالاستراحة ثم الواحة فى طريقنا إلى الجنوب حيث نفض غلاف المظروف .

ـ أجل، والحق أنى لم أدرك وجه الحكمة فيه، وقد نفذنا الشطر الأكبر منه بكل دقة ودون جنى أى ثمرة إلا ما حاق بنا من خسران!

ـ لا تنس أننا ضيعنا وقتنا فى العربدة والعراك .

ـ هو خير عندى من المكوث بلا عمل أو تسلية .

ـ فاتتنا أشياء وأشياء لم نفطن لها فى حينها!

ـ ما كان قد كان، انتهينا إلى ما نحن فيه، فما العمل؟

ـ لا تستسلم لتيار خيالك الجامح، اسبح ضده بقوة، وهلم نبحث عن العمران . .

فضرب عبد القوى الأرض بقدمه فى عناد وقال :

ـ كلا .

ـ ثق بأننا سنعرف المهمة .

ـ كلا !

ـ إنى أطالبك بالسير معى . .

ـ كلا .

ـ معنى ذلك أننا سنفترق .

ـ لنفترق .

ـ ولكنك قلت إننا اعتدنا الحياة معا .

ـ منذ نشأتنا الأولى !

ـ لم تجرب الحياة وحدك .

ـ ولا أنت .

ـ إذن يجب أن نحافظ على وحدتنا .

ـ تعال معى .

ـ بل عليك أنت أن تأتى معى .

ـ إنى أرفض وصايتك كما رفضت وصاية التنظيم .

ـ لقد انقطع ما بيننا وبين التنظيم، ولئن زالت عنا ولايته فقد وهبنا الحرية، ولكنها ليست الحرية التى كانت لنا قبل أن ننضم إليه، إنها حرية جديدة غير عابثة، وليست وصاية منى عليك . .

ـ إنك تحسن الجدل، ولكنى مصر على الرفض !

ـ لا يجوز أن نفترق . .

ـ لا يجوز أن نفترق . .

ـ هلم معى . .

ـ هلم معى أنت . .

ـ ليتقدم كل منا خطوة من جانبه، عندى اقتراح للتوفيق.

ـ ما هو؟

ـ ليكن لكل منا اختصاصه وليعمل فى دائرته ولكن تحت شرط!

ـ وهو؟

ـ أن تسلم بالمهمة، لا تهرب منها ولا تنكرها، فبدونها تضحى الحياة لا شىء . .

ـ ولكن المظروف سرق؟

ـ لا يهم، إن فقده يعنى الانفصال عن التنظيم، لا إهمال المهمة أو الكفر بها، بل لعل الإيمان بالمهمة هو الذى دفعنا إلى الانضمام إلى التنظيم وليس العكس . .

ـ بوسعك دائما أن توقع عقلى أسيرا لمنطقك، ولكن كلماتك لا تنفذ إلى باطنى . .

ـ اقتراحى يبدو لأول وهلة خارقا للمألوف، من أين لنا أن نعرف المهمة؟ ولكن من الأصل فى اقتراح المهمة أليس هو الزعيم المجهول؟ حسن، وأليس هو يقترح المهمة بعقله؟ حسن، فلم نتصور أن عقله فوق جميع العقول؟ بل حتى مع التسليم بتفوقه فهل يعنى هذا التسليم بعجز عقولنا؟ فإذا انقطعت الصلة بيننا وبينه فما علينا إلا أن نفكر، ثم إن الصلة بيننا وبينه مقطوعة فى الواقع من بادئ الأمر فنحن لا نعرف إلا مندوبه الذى يرأس وحدتنا، ولا علم لنا عن مدى صلة المندوب به، ولا يبعد أنه يترك للمندوبين مهمة اقتراح المهمة . .

ولكنه انقطع عن الكلام عندما انفتح بابها، وتدلى السلم نحو الأرض. ولاح فى الباب رجل يحمل حقيبة متوسطة الحجم سرعان ما أخذ فى النزول. ضيق عبد الواحد عينيه ليحدَّ بصره ثم هتف:

ـ زميلنا نوح!

ـ أجل.. هو الزميل نوح..

مضيا نحوه فتلاقوا فى منتصف المسافة. تهلل وجهاهما بالفرح، ولكنه قابلهما بوجه جامد لا يفصح عن أى تعبير إنسانى، فباخا وهما يصافحانه، وصافحهما بآلية صماء. ودون أن ينبس بكلمة فتح الحقيبة وأخرج لكل طاقم ملابس متكاملة. ارتديا الملابس الداخلية والخارجية فى فتور وقلق. ولما فرغا نظر إليه فى استطلاع فأشار صوب الطائرة وقال:

ـ الطائرة تحت تصرفكما إذا رغبتما فى العودة.

وساد الصمت قليلا حتى تساءل عبد الواحد:

ـ كيف عرفتم بمكاننا أيها الزميل؟

ولكنه لم يجب فعاد عبد الواحد يقول:

ـ لعلهم أرسلوا وراءنا عيونا؟

لم يبد عليه أنه سمعه، فقال عبد الواحد بإصرار:

ـ أرجو أن يكون رجالنا قد استردوا المظروف المسروق!

فثابر على صمته دون مبالاة. فقال عبد القوى باسما:

ـ بحسن نية أيها الزميل ارتكبنا بعض الأخطاء، ودون تقدير للعواقب!

كأنه أصم لم يستجب، ولكن عبد القوى لم ييأس فسأله:

ـ هل نجد محاكمة عادلة ورحيمة ونمنح فرصة جديدة للعمل؟

قام الصمت كجدار سجن. ولما لم يحاولا الكلام مرة أخرى قال نوح وهو يتناول الحقيبة الفارغة:

ـ سأنتظر فى الطائرة ثلث ساعة ثم أرجع من حيث أتيت.

ورجع كما جاء فرقى فى السلم حتى اختفى داخل الطائرة. تبادلا نظرة حائرة، ثم تساءل عبد القوى:

ـ ما له يعاملنا كأنه غريب أو عدو؟

ـ إنه ينفذ ما أمر به.

ـ ماذا تظنهم فاعلين بنا؟

ـ سنقدم إلى محاكمة عاجلة.

ـ وما العقوبة المتوقعة؟

ـ العقوبات تتراوح بين الإعدام والخصم من المرتب.

ـ لو كنا نستحق الإعدام فى نظرهم لأمروه بقتلنا فى هذه المتاهة!

ـ لا تعتمد على المنطق فى فهم نواياهم.

ـ ستوقع علينا عقوبة ما ثم نمنح فرصة جديدة للعمل، هذا هو إحساسى!

ـ أترى أن نعود معه؟

ـ إنه المخرج الوحيد من حيرتنا إلا . . .

ـ إلا؟

ـ إلا إذا وافقتنى على الهرب!

فنفخ عبد الواحد فى ضيق وقال:

ـ لا تعد إلى ذلك.

ـ إذن فلا مفر من العودة.

ـ ألم تتمرد منذ حين قليل على الوضع الذى يجعل منا آلات صماء؟!

ـ إنى أعجب لشأنك كيف انقلبت من النقيض إلى النقيض .

ـ قلت لك إنى ابن الساعة التى أنا فيها ، ولكنك أنت أول من فكر فى الانضمام إلى التنظيم ، أنت من دافع عنه بحسناته وسيئاته ، أنت من قبل بحماس الدور الذى رسمه لك دون مناقشة !

ـ لعل تمردك تسلل إلى نفسى ، خالط فكرى بعلم وبغير علم منى ، فلما وقعنا فى هذا المأزق تبدت الحقيقة عارية ، وانتهيت إلى رأى حاسم .

ـ يحزننى أن يكون تمردى من أسباب انقلابك .

ـ سأشكر لك ذلك ما حييت .

هنا دار محرك الطائرة محدثا دويا كالانفجار ، فهتف عبد القوى :

ـ فكر مرة أخرى أيها الزميل .

ـ فكرت بما فيه الكفاية .

ـ أمامك فرصة أخيرة !

ـ وأمامك فرصة أخيرة !

ـ ما أمر الفراق !

ـ إنه لكذلك أيها الزميل القديم .

تنهد عبد القوى يائسا . فتح ذراعيه فتعانقا بحرارة . اشتد دوى المحرك انتزع عبد القوى نفسه من صاحبه . مضى نحو الطائرة فى خطوات ثقيلة . أخذ يرقى فى السلم حتى بلغ الباب . استدار فلوح لصاحبه مودعا فرد الآخر التحية بمثلها . بدأت الطائرة فى الصعود . دومت فى الفضاء . أتبعها عبد الواحد عينيه وهى تبتعد وترتفع وتصغر حتى اختفت فيما وراء الأفق . وجد نفسه وحيدا . وجد نفسه حزينا ، ولكنه لم يبدد دقيقة من وقته سدى . شحذ إرادته لينفض عن قلبه الحزن ، قلّب وجهه فى الجهات الأصلية ليحدد طريقه إلى العمران . سار متجها نحو الشرق . .

وليد العناء

جلس وحيدا فى الصالة . أرهقه ذرعها ذهابا وإيابا فجلس . ثبتت عيناه على الباب المغلق وأرهف السمع . أشعل سيجارة ، دخنها بطريقة آلية خالية من الاستمتاع ولم تتحول عيناه عن الباب المغلق . بدت من وراء الباب أصوات مبهمة ، حركة أقدام ، تأوهات خافتة ، أشاعت فى جوه الخالى روحا مبللا بعرق العناء المر . ونظر فى الساعة ، مرت عيناه بالنافضة المكتظة بأعقاب السجائر ، ونفخ وهو يمد ساقيه .

وفتح الباب فمرقت منه امرأة عجوز مطوقة الوجه بخمار أبيض . . ردت الباب وراءها وتقدمت ، ولكنه وثب معترضا سبيلها . انتبهت إليه وقالت برقة :

ـ كل شىء حسن ، لا تقلق . .

فقال بانقباض :

ـ ولكن طال الوقت .

ـ إنها ساعة لا يعلم بأسرارها إلا الله فتوكل عليه .

ـ لولا السوابق الماضية ما باليت شيئا . .

ـ لا تذكرنا بما مضى ، الطبيبة مطمئنة ، قالت إنها ستلد ولادة طبيعية . .

ـ بدأ الطلق فى أول الليل وها نحن أولاء فى الهزيع الأخير منه .

ـ ربك كريم، وعندها طبيبة لا داية، فاصبر وانتظر.
شعر بامتعاض نبرتها فقال:
ـ لا تلومينى يا دادة، هذا زمن الأطباء لا الدايات. .
ـ كم ولدت الداية أمها فى يسر كالسحر.
ـ ذاك زمان مضى، وما من داية تستطيع أن تواجه هذه الحال. .
ـ كم واجهت مثيلات لها فى الماضى. .
ـ كل شىء تغير، حتى المرض نفسه. .
مضت نحو الحمام ثم رجعت بوعاء من الصاج فدخلت الحجرة وأغلقت الباب. وجد شيئا من الطمأنينة. لم يأل جهدا فى إقناع نفسه بها ما دامت الطبيبة قد قالت. دق جرس الباب الخارجى فبادر إليه. استقبل القادم بدهشة وترحاب معا، وهو نحيل طويل يكاد يماثله شكلا ويقاربه فى العمر. أجلسه على مقعد إلى جانب مقعده وهو يتمتم:
ـ خطوة عزيزة، أهلا بك. .
ـ علمت بالخبر وأنا عائد من سهرة طويلة فلم أتردد فى المجىء إليك. .
ـ أشكرك يا عزيزى، إنها ساعة متأخرة جدًّا. .
ـ لا شكر على واجب. .
ـ ولكن كيف علمت بالخبر؟
ـ من أكثر من مصدر فيما يخيل إلىّ. .
ـ لم أتصور أن أحدا علم به سوى أمها. .
ـ أنت يا صديقى لا تعلم بما يدور حولك.
ـ حدثنى عن مصادرك!
ـ لا أدرى، لا أذكر. .
ـ لا تدرى ولا تذكر؟!

ـ كنت وقتها ثملا بالشراب!

ـ وكانوا سكارى؟

ـ المهم كيف حال الست؟

ـ قالت الطبيبة إنها ستلد ولادة طبيعية . .

ـ حمدا لله .

ـ ولكن السوابق تقلقنى . .

ـ لا لوم عليك فى ذلك .

ـ ولكن لا يجوز الخوف من السوابق أكثر مما ينبغى .

ـ عين الحكمة والصواب .

ـ أهذا هو رأيك أيضا؟

ـ علينا أن نستفيد من السوابق لا أن نخافها .

ـ كانت سوابق إجهاض جبرى ونزيف .

ـ لا أعادها من أيام .

ـ ترى كيف يمكن الاستفادة منها؟

ـ بأن نتجنب الأسباب التى أدت إليها . .

ـ ولكنه الحبل نفسه؟

ـ فلنتجنبه .

ـ ولكن أمر الله نفذ وكل شىء بأمره .

ـ أظن لك دخل فى الأمر أيضا؟

ـ طبعا . .

ـ مأثور عنك حب الأبوة بلا حدود . .

ـ لا أنكر ذلك .

ـ صدقنى إنه حب لا معنى له .

ـ إنه أصل الوجود!

ـ لا معنى له فى هذا العصر.

ـ إنها مداعبة ولا شك؟

فقال الصديق وهو يشير إلى الباب المغلق:

ـ أهذا وقت تجوز فيه المداعبة؟

ـ ولكنه أصل الوجود بلا ريب.

ـ فى عصرنا هذا تقع له مضاعفات لم تكن معروفة قديما.

ـ الطبيبة قالت إنها ستلد ولادة طبيعية.

ـ فليباركها الله.

ـ ولكن الوقت طال وها نحن أولاء فى الهزيع الأخير من الليل؟

ـ يا لها من معاناة تهتز لها الأفئدة.

ـ أسعفنى برأيك؟

ـ لا رأى لى يعتد به فى هذه الشئون، ولكن ماذا قالت الطبيبة فى السابقة الأولى؟

ـ كانت فى الواقع داية ولذلك أرجعنا الإجهاض الجبرى إلى جهلها..

ـ والسابقة الثانية؟

ـ قالت الطبيبة إن النزيف حدث نتيجة لعيب فى الجهاز..

ـ وهل برأ الجهاز من عيبه؟

ـ هيأت لها ما استطعت من دواء.

ـ إذن فلا داعى للقلق.

ـ ولكن الوقت طال والمعاناة تتراكم.

وانطلقت من وراء الباب المغلق تأوهة عميقة، أعقبتها صرخة

مدوية، ثم موجة متقهقرة من الأنين. صمت الزوج محدقا فى الباب، ولما مضى الانتظار بلا نتيجة قال الصديق:

ـ لعله البشير . . .

ـ هى حال تتكرر من أول الليل.

ـ يا لها من ولادة عسيرة!

ـ ولكن الطبيبة قالت إنها ستلد ولادة طبيعية.

ـ إذن فهى ولادة طبيعية طويلة!

ـ من أين لى باليقين؟

ـ فلنرجع إلى أهل الخبرة.

ـ لديها طبيبة ممتازة.

ـ الآراء تختلف.

ـ هل لديك اقتراح عملى؟

ـ دعنا نفكر.

ـ قلت إن الآراء تختلف.

ـ هذا قول صادق فى ذاته.

ـ كيف نبلغ اليقين؟

ـ الحقيقة بنت البحث!

ـ إنك مغرم بالأقوال المأثورة.

ـ سجية جميلة فى ذاتها!

ـ ولكن لا وقت لدينا للبحث.

ـ هذا حق . .

ـ فكرى تبلبل.

ـ هذا حق.

ـ أراها حالا مرضية . .

ـ هى أحيانا كذلك!

ـ لم يبق إلا الصمت والانتظار.

ـ قد تفوت فرصة نادرة!

ـ فماذا أفعل؟

بعد تردد:

ـ الصمت والانتظار!

ـ ولكنك قلت إنه قد تفوت فرصة نادرة؟

ـ وقد لا يحدث شيء!

ـ فكيف أتصرف؟

ـ فكر!

ـ أإذا فكرت تلد امرأتى بسلام؟

ـ يتوقف ذلك على نوع العلاقة بين التفكير والولادة!

ـ ترى أى نوع من التفكير يمكن أن يؤدى إلى الولادة السعيدة؟

ـ فكر!

ـ يبدو أنك لا تعرف أكثر مما أعرف.

ـ وربما أقل!

فسأله بنرفزة:

ـ لم جئت؟

ـ جئت مدفوعا بواجب اللياقة . .

ـ شكرا.

ـ عفوا.

ـ فى أمثال هذه الظروف يقدم المجاملون ما فى وسعهم من خدمات؟

ـ إنى على أتم استعداد .

ـ ماذا فى وسعك أن تفعل؟

ـ أأنت فى حاجة إلى نقود يا صديقى؟

ـ إنى فى حاجة إلى من يسعفها هى .

ـ عندها طبيبة ممتازة .

ـ ترى هل أخطأت؟

ـ أنت؟

ـ نعم .

ـ ما كان يجوز أن تتركها تحبل .

ـ إنها بنت غلطة .

ـ بل أنت مجنون بالأبوة . .

ـ هذا شأن الرجال جميعا .

ـ احذر الأحكام الشاملة . .

ـ إذن لماذا يتزوج الرجال؟

ـ أفكرت يوم عشقتها فى الأبوة أم فى الاستمتاع بها؟

ـ الاستمتاع يخمد، أما الأبوة فخالدة!

ـ ما كان أجدرك أن تجد فى السابقتين نذيرا!

ـ الحياة إقدام لا نكوص .

ـ إذن فلتتحل بالشجاعة .

رماه بنظرة نافذة . همّ بالكلام ولكن الباب فُتح وخرجت امرأة فى الخمسين منهوكة القوى . وقف الزوج لاستقبالها . قدم لها صديقه وقدمها له باعتبارها حماته . رفضت المرأة الجلوس وظلت متجهمة الوجه . سألها بإشفاق :

ـ كيف الحال؟

ـ الحمد لله . .

ثم بحدة موجهة خطابها للزوج :

ـ إنى أحتج على ما تذيعه فى كل مناسبة من التشكيك فى كفاءة ابنتى للحبل !

فقال الزوج محتجا بدوره :

ـ لم أشكك فى كفاءتها ، ولكن الحكمة تقتضى تذكر الأزمات السابقة !

ـ لا عيب فى ابنتى على الإطلاق .

ـ إنى مؤمن بذلك .

ـ العيب فيك أنت!

ـ أنا ؟!

ـ طالما نغصت صفوها بنزواتك حتى سممت بدنها فأصبحت جميع شئون حياتها عسيرة لا ولادتها فقط!

ـ علم الله أن زوجا لا يحب زوجة كما أحبها .

ـ وجريك وراء كل من هبت ودبت من النسوان؟

ـ أعوذ بالله ، أتصدقين شائعات يفتريها علىّ الحاسدون؟

ـ أنا لا أتكلم بلا حساب دقيق .

ـ وأنا مظلوم ظلم الحسن والحسين .

وتدخل الصديق قائلا بلطف :

ـ أشهد أنه يحبها فوق كل شىء .

فالتفتت إليه متسائلة فى حدة :

ـ ماذا تعرف عن أسرار هذا البيت؟

ـ أعرف ما يجدر بالصديق أن يعرفه .
ـ إذن فأنت خبير ولا شك بغرامياته؟
ـ لا غرام له إلا الأبوة .
ـ بل لعلك تشاركه بعض مغامراته ولذلك تنبرى للدفاع عنه؟
ـ سيدتى!
ـ إنى خير من يفهمكم .
ـ الزوج الوفى يظل وفيا حتى لو تسلل بصره إلى هذه أو تلك من النساء . .
ـ ما شاء الله .
ـ صدقينى يا سيدتى ، إنه لا يثبت أركان الحياة الزوجية ويجنبها الملل مثل التنقل العابر بين النساء!
ـ هأنتذا تعترف!
فصاح الزوج :
ـ أنا لم أعترف ، وأعلن استنكارى لهذه النظرية!
فقال الصديق متراجعا :
ـ إنى أضرب مثلا ليس إلا .
فهتفت المرأة :
ـ يا لسوء حظك يا بنتى!
فقال الصديق :
ـ لا تخلو حياة من المر مهما تكن حلوة ، وأشهد أنى ما سمعت زوجة صديقى تشكو قط .
ـ ذلك أنها من الصابرات الصديقات!
ـ لو كان هناك ما يدعو للشكوى لشكت . .

ـ حتى الجوع! . . تضورت أياما من الجوع!

فصاح الزوج:

ـ الجوع!!

وقال الصديق:

ـ لعلها تشير إلى الأيام التى ندرت فيها اللحوم؟

فقال الزوج:

ـ على أيامك يا حماتى أكل الناس لحوم الخيل.

فهتفت المرأة فى كبرياء:

ـ كانت أيام بلاء واحتلال.

ـ على أى حال فنحن سعداء ولن نسمح لمخلوق بإفساد حياتنا السعيدة!

دوت صرخة وراء الباب المغلق فألجمت الألسن. أسرعت المرأة إلى الحجرة فأغلقت الباب وراءها.

عاد الصديقان إلى مجلسهما وعاد التوتر يركب الزوج جسدا وروحا. لم يجد من يفرغ فيه شحنة قلقه سوى صديقه فقال له:

ـ كلامك جاوز كل حد. .

ـ كثيرا ما أنسى نفسى فى الحديث فيغلبنى الصدق.

ـ قد يغلبك الصدق مرة أخرى فتخرب بيتى.

وقبل أن يرد عليه دق جرس الباب الخارجى. قام الزوج فاستقبل زائرا جديدا فى تلك الساعة من الليل. عجوز طاعن فى السن. لو قدر عمره بتجاعيد وجهه وغضونه لجاوز المائة، ولكنه تمتع بحيوية لا بأس بها. وهو نحيل لدرجة مخيفة كأنه محض عظام. برزت وجنتاه وفكاه وغارت عيناه فلم يبد فى محجريهما إلا ظلام. وتربع رأسه فوق عنقه

الدقيق ضخما أصلع منبعج الجبين. وعكس الوجه هيئة جامدة بل متحجرة وندت عن القدمين خطوات متقاربة غير مسموعة. قبّل الزوج يده المدبوغة، قدم إليه صديقه، قدمه هو باعتباره صديق المرحوم أبيه والمرحوم جده من قبل، وجاءه بفوتيل فأجلسه بينهما وهو يقول:

ـ لم أتوقع أن تتجشم مشقة الحضور فى هذه الساعة يا عماه..

فقال العجوز بصوت غائر مثل عينيه:

ـ طال انتظارى للبشرى فقررت زيارتك..

ـ ما كان ينبغى أن تكلف نفسك هذا التعب.

ـ هل من خدمة يمكن أن أقدمها لك؟

ـ لا مطلب لى إلا زوجتى.

ـ يُخيّل إلىّ أنها ولادة عسيرة حقّا؟

ـ قالت الطبيبة إنها ستلد ولادة طبيعية.

ـ عظيم..

ـ ولكنها طالت كما ترى.

ـ هذا واضح..

ـ وعندما أتذكر المرتين السابقتين؟

ـ المؤمن لا يخاف ولا يقلق.

فقال الصديق:

ـ هذا ما رددته له مرارا.

فقال العجوز باسما عن أنياب عتيقة:

ـ أتشك فى ذلك يا بنى؟

ضحك الصديق متسائلا:

ـ ألا يتوقع منى مثل ذاك القول الحكيم؟

ـ هذا أقل ما يقال!

ـ شكرا.

ـ عفوا.

ـ يُخيّل إليّ أنى رأيت سيادتك قبل الآن؟

ـ يعرفنى أهل الحى جميعا.

ـ لست من أهل الحى فمعذرة ولتحل بركتك بالبيت.

ـ فلتحل به بركة الله الرحيم.

ـ صديقى قلق وفى حاجة إلى من يشجعه.

ـ علينا أن نذعن لمشيئة الله قبل كل شىء.

والظاهر أن قوله لم يبشر بالطمأنينة المفتقدة فساد الصمت قليلا حتى خرقه الزوج قائلا:

ـ جئت لها بطبيبة ممتازة.

ـ لم تكن توجد طبيبات فى الزمن الماضى.

ـ ذاك زمن مضى وانقضى.

ـ أعرف زوجة ماتت فى مستشفى خاص تحت إشراف ثلاثة أطباء!

ـ أعوذ بالله!

ـ فلا عاصم لنا إلا إرادة الله.

ـ ولكنى لم أخطئ باستدعاء الطبيبة!

وقال الصديق متضايقا:

ـ ما أجدر أن نتجنب ذكر الموت فى موقفنا هذا!

فقال العجوز:

ـ ولكنه حديث كل يوم وكل ساعة.

فقال الزوج:

ـ هذا حق ، ولكنه حديث غير محبوب . .

ـ لم يا بنى ؟

ـ الموت لا يحبه أحد!

ـ يا له من خادم أمين مظلوم!

ـ مظلوم؟ !

ـ كيف تتصور الدنيا بغيره؟

ـ أفضل مما كانت معه عشرات المرات .

ـ أنت مخطئ يا بنى ، مخطئ فى حق ثائر عظيم .

ـ ثائر عظيم؟ !

ـ بل زعيم الثوار فى كل زمان ومكان .

ـ لغة أى عصر هذه؟

ـ لغة العصر ، لغة الغد . .

ـ فلنختر حديثا آخر . .

ـ ما جدوى الأحاديث المعادة؟

ـ أصارحك يا عماه بأننى لا أفكر إلا فى سلامة زوجتى .

ـ فلتحل بها بركة الله .

ـ آمين .

ـ ولكن خبرنى هل جددت مقبرة الأسرة؟

فهتف الصديق :

ـ يا ألطاف الله!

وتساءل الزوج بامتعاض :

ـ من أخبرك أننى أفكر فى ذلك؟

ـ تلك كانت رغبة أبيك لولا أن عاجله الموت .

ـ أما أنا فلا يمكن أن أنفق مليما على تجديد مقبرة!

ـ أحسنت .

وقال الصديق نافخا :

ـ إنى أنذر جنيها استرلينيا إذا تغير الحديث .

فقال العجوز دون مبالاة للمقاطعة :

ـ كلما رأيت مقبرة متجددة حزنت!

فتساءل الصديق :

ـ الظاهر أن سيادتك تزور المقابر كثيرا؟

ـ شيعت المئات من الموتى بحكم سنى الطاعنة!

ـ وماذا يحزنك فى مقبرة متجددة؟!

ـ أرى المقبرة العتيقة البالية من آيات الرحمن!

فقال الزوج برجاء :

ـ هلا حدثنا بحديث آخر؟

ـ سنجد حديثا أو آخر، سيشرق بنا ويغرب، ثم لا مفر من العودة إلى الحديث الأول .

ـ إنه حديث كئيب خانق للقلب .

ـ أشك فى ذلك!

ـ لا شك فى ذلك من ناحيتى!

فقال العجوز بصوت هامس مخاطبا نفسه :

ـ علىّ ألا أيأس، مهما طال الزمن، حتى لو طال بالقدر الذى أتصوره كافيا .

ثم نهض قائما . نظر نحو الباب المغلق وقال :

ـ آن لى أن ألقى نظرة .

فعلت الدهشة وجهى الصديقين وتساءل الزوج :

ـ على أى شىء يا عماه؟

ـ على زوجتك.

ـ زوجتى! . . شكرا . . ولكن لا تكلف نفسك مزيدا من التعب.

ـ إنه واجب يا بنى!

ـ ولكنه غير جائز!

ـ كيف؟

ـ غير جائز بلا حاجة إلى تفسير!

ـ إنى صديق أبيك وجدك من قبل، صديق حميم . .

ـ لو كان أبى نفسه مكانك ما خطر له ذلك!

ـ إنك تمنعنى من أداء واجبى!

ـ إنى أطالبك بالجلوس مشكورا . .

ـ هبنى طبيبا.

ـ ولكنك لست طبيبا!

ـ وما الفرق يا بنى؟

ـ مزاح لطيف!

وقال الصديق:

ـ ويا له من مزاح!

فقال العجوز دون التفات لمقاطعة الصديق:

ـ إنى ألصق بك من الطبيب.

ـ اجلس يا عماه مشكورا مكرما!

فُتح الباب. خرجت امرأة متوسطة العمر تتهادى فى معطف أبيض وتنظر من خلال نظارة أنيقة ذات مشبك ذهبى. أقبل الزوج نحوها متسائلا فى لهفة:

ـ دكتورة؟

فقالت المرأة بهدوء :

ـ غير منتظر أن تلد سريعا ، ولكنها ستلد ولادة طبيعية .

انتبهت إلى وجود العجوز فصافحته مصافحة حميمة ، وقال الرجل :

ـ أهلا بك يا عزيزة ، رحم الله أباك .

ـ أهلا بك يا عماه .

ـ وكيف حال الأم الصغيرة؟

ـ طبيعية وإن تكن شديدة بعض الشىء .

ـ كلام يذكرنى بأقوال الأطباء!

ـ ماذا تعنى يا عماه؟

ـ كلام يشى باحتمالات كثيرة!

ـ الحال طبيعية جدًا ، ولكننا لا ندخل فى علم الله . .

ـ آه من الأطباء إذا رددوا ذكر الله!

ـ ولكنى أتكلم بصراحة .

قال الزوج بحدة :

ـ صارحونى بكل شىء .

فقالت الطبيبة :

ـ ضع ثقتك فى الله .

فقال العجوز :

ـ كلام له مغزى خاص .

فقال صديق الزوج :

ـ عمنا يتلهف على سماع كلمة سوء!

فقال العجوز :

ـ وأنت تتلهف على سماع كذبة .

وقالت الطبيبة :

ـ الحال طبيعية جدًا يا عماه .

ـ لم تركت الحجرة ؟

ـ لأستريح دقيقة .

ـ أردت الدخول فمنعونى .

ـ لا يوجد رجل فى الداخل .

ـ وما رأيك أنت فى ذلك ؟

ـ لا رأى لى فى ذلك يا عماه .

ـ بل تستطيعين أن تدلى برأى حاسم فى الموقف .

فقال الزوج بإصرار حازم :

ـ مكانك معنا يا عماه .

وتساءل الصديق :

ـ ألم تجيء للاطمئنان على ابن صديقك الراحل ؟

ـ ولكنه لا يعانى ولادة عسيرة !

ـ وأنت لا تعرف الزوجة إلا بصفتها زوجة ابن صديقك الراحل .

ـ والدها أيضا كان صديقا لى . .

ـ لعلك شيعته كالآخرين ؟

ـ وهو ثواب كبير . .

وهتف الزوج :

ـ مكانك بيننا يا عماه ولا لزوم للأخذ والرد .

فرفع العجوز منكبيه آسفا وقال مخاطبا الطبيبة :

ـ إنكم تعذبون الناس بلا سبب معقول .

فقالت الطبيبة :

ـ نحن نؤدى واجبنا الإنسانى . .

ـ ولا تميزون الصديق من العدو .

ـ ما أظرفك يا عماه !

ـ وأنتم المسئولون عما يحل بالإنسان من ضرر بالغ . .

ـ سامحك الله يا عماه .

ـ فليسامحك أنت .

وسأل الصديق :

ـ ماذا تعنى يا عمنا؟

ـ لا غموض فى كلامى .

ـ لعله يحتاج إلى شىء من التبسيط .

ـ يتعذر التبسيط على من هو فى مثل عمرى .

ـ إن عطفك يا عماه يركبك الصعب .

ـ إنك فتى مشاغب .

أحنت الطبيبة رأسها تحية ، ثم رجعت إلى الحجرة فأغلقت الباب .

وهتف الزوج :

ـ يا لها من ليلة ليلاء !

فقال صديقه :

ـ عما قليل يطلع الفجر .

عاد العجوز إلى مقعده وهو يقول :

ـ ما باليد حيلة .

وأسند رأسه إلى ظهر الفوتيل وأغمض عينيه مستوهبا الراحة أو

النوم. وارتفع الصراخ من وراء الباب. مرات متتابعات ثم سكت. تابعه الزوج باهتمام، ولكن الباب المغلق تبدى صلبا عنيدا أصم محدقا فى لا شىء بنظرة باردة مترفعة. واضح أنه لم يجد جديد وأن الكفاح غير المنظور يضطرم بلا هوادة. وفُتح الباب عن زاوية ضيقة وتسللت منه فتاة فى العشرين ترفل فى فستان أبيض. أشرقت بوجه بدا ـ رغم الإنهاك ـ كالقمر الساطع. حيت الجالسين ولكن العجوز لم يبد حراكا وظل مغمض العينين. وقالت للزوج:

ـ إنها تريدك.

ـ قام الرجل فمضى إلى الداخل وأغلق الباب. ذهبت الجميلة إلى كنبة فى الجانب المقابل لمجلس الرجال ثم جلست. لم يحوّل الصديق عينيه عنها مذ طلعت عليه من الحجرة. التقت عيناهما مرة، ثم غضت البصر فى إعياء. قال:

ـ لعلك فى حاجة إلى شراب منعش..

فأجابت:

ـ إنى فى حاجة إلى شىء من الراحة.

ـ شقيت على نفسك بالبقاء فى الداخل إلى جانب شقيقتك.

ـ إنها معاناة مروعة..

وقام، ربما متشجعا بنوم العجوز، فجلس إلى جانبها وهو يقول:

ـ قلبى معك طيلة الوقت!

ـ الله معها..

ـ من أجلك جئت فى هذه الساعة من الليل..

ـ ظننتك جئت من أجل صديقك.

ـ كان من الممكن أن أزوره صباحا، ولكن من أجلك أنت..

ـ ماذا تريد؟

ـ إنك مرهقة الأعصاب .

ـ ربما .

ـ كلانا مرهق الأعصاب!

ـ أنت أيضا؟

ـ شاركت صديقى آلامه، يضاف إلى ذلك تفكيرى الدائم فيك!

ـ شكرا . .

مال نحوها كالمسحور فلثم فاها . لم تقاومه ولم تشجعه . قالت :

ـ معذرة فإنى أكره الرجال فى هذه اللحظة!

ـ ذاك من تأثير ما شاهدت فى الحجرة، ولكنها لحظة سرعان ما تمضى .

ـ من يدرى، ولكن كيف قبّلتنى؟!

ـ إنه سحرك الذى لا يقاوم، وغرامى القديم الذى لم ترفضيه على الأقل!

ـ إنه تصرف لا يغتفر .

ـ هيا معى إلى الليل فى الخارج .

ـ أحلام جنونية .

ـ سنستقبل الفجر الندى معا .

ـ هيهات لقلب ميت أن يستجيب لجنونك .

ـ إنه الدواء الشافى لما نعانى من اضطراب .

أراد أن يُقبّلها مرة أخرى، ولكنه رآها تنظر نحو العجوز المغمض العينين باهتمام طارئ، فقال :

ـ لا تهتمى له، إنه مستغرق فى النوم!

حاول أن يضمها إلى صدره، ولكنها دفعته فأراد أن يعيد المحاولة وإذا بصوت العجوز يقول دون أن يفتح عينيه :

ـ عد إلى مجلسك يا بنى!

ارتد عنها منزعجا. نظر نحو العجوز فرآه مغمض العينين مطروح الرأس إلى ظهر الفوتيل. قطب حانقا ولكنه لم يتخل عن مجلسه. جاءه الصوت البارد يقول معنفا :

ـ لا ترتكب فضائح أمام الباب المغلق!

قام الصديق متعثرا. عاد إلى مجلسه حانقا. فتح العجوز عينيه فتلقى نظرة الفتاة الثابتة. تبادلا نظرة طويلة دسمة. ابتسما معا. قام العجوز وهو يقول :

ـ أعصابك مرهقة يا بنتى . .

جلس إلى جانبها. تناول يدها برقة فوضعها بين يديه المدبوغتين. قال :

ـ ما أحوجك إلى راحة طويلة!

جذبها بلطف فاستسلمت له حتى أجلسها على فخذه وهو يهمس :

ـ كما كنت تجلسين وأنت صغيرة . .

ثم وهو يربت خدها :

ـ رحم الله أباك . .

فقال الصديق بغضب :

ـ وضع غير لائق.

فقال العجوز :

ـ كل شىء فى وضعه!

ـ ألا ترى أنها لم تعد صغيرة بعد؟

ومد لها شفتيه الجافتين المكرمشتين فوهبته شفتيها فراح يُقبّلهما .
وقف الصديق هاتفا :
ـ أى فعل فاضح !
ولكن الفتاة طوقته بذراعيها وأنامت رأسها على كتفه منخرطة فى هيمان ساحر . صاح الصديق :
ـ لا تتمادى فى الإجرام .
فهمس العجوز فى أذن الجميلة :
ـ اهدئى يا جميلتى .
فغمغمت :
ـ أريد أن أنام .
ـ ستنامين كأسعد ما يكون .
وفتح الباب وخرج الزوج . عاد إلى مجلسه فجلس واضعا رأسه بين يديه . توقّع الصديق أن ينفصل العجوز عن الفتاة ، ولكنه واصل مناغاته وكأنه لم يشعر برجوعه . عند ذاك صاح الصديق :
ـ دعها أيها العجوز القبيح !
رفع الزوج رأسه منزعجا وقال لصديقه :
ـ ما هذا الصياح ؟! . . أجننت ؟
فأشار إلى العجوز والفتاة قائلا :
ـ انظر !
ـ لعلها فى حاجة إلى عطف ، عد إلى مجلسك .
ـ أأنت أعمى ؟
ـ احترم حالى التعيسة !
وهمس العجوز فى أذن الفتاة :

ـ هلمى نذهب معا .

ـ إلى أين؟

ـ إلى الليل . .

ـ الصبح قريب .

ـ ما زال فى الليل بقية تكفى غطاء للعاشقين!

ـ خذنى إلى حيث تشاء .

ـ ما أجمل عينيك المخضلتين بالأحلام!

ـ ما أعذب همساتك ولمساتك!

فهتف الصديق :

ـ ماذا يحدث فى الدنيا؟

فقال الزوج محتدا :

ـ تصرف كرجل مهذب .

ـ ثمة علاقة عاطفية تنشأ بين العصر الحجرى والعصر الحديث!

ـ تأدب ، إنه عمها ، عمنا جميعا ، ألا تفهم؟

ـ أنتركها تذهب معه؟

ـ هذا شأنها . .

ـ ولكنه يحدث فى بيتك ومع بعض أهلك؟!

ـ عندى من الشواغل ما يكفى . .

وكان العجوز قد قام وقامت الجميلة معه مستسلمة كالمنومة فوثب الصديق معترضا سبيلها وهو يقول :

ـ لن أسمح بذلك ، سأدافع أنا الغريب عن شرفك!

فقال له العجوز بنبرة ساخرة :

ـ إنها نفس الرحلة التى دعوتها إليها!

ـ ولكنها معك تفقد كل الإنسانية!

وصاح الزوج:

ـ اذهبوا جميعا واتركونى فى سلام . .

فقال العجوز:

ـ سمعا وطاعة . .

ولكن الصديق صرخ:

ـ دعها فهى لى أنا وحدى، أنا المرشح للزواج بها.

فسأله العجوز ساخرا:

ـ منذا الذى رشحك؟

فأجاب الصديق بحنق:

ـ كانت الأمور تسير سيرا حسنا بينى وبينها حتى تدخل صوتك الكريه . .

جلجلت وراء الباب المغلق صرخة مدوية. أفظع من سابقتها جميعا. تحول الزوج نحو الباب منذعرا. تسمر الصديق فى موضعه. رفعت الجميلة رأسها عن صدر العجوز كمن تفيق من غيبوبة، تخلصت من ذراعيه وهى ترمقه فى ارتياع، ثم هرعت إلى الحجرة فدخلت وأغلقت الباب وراءها. تمتم العجوز ممتعضا:

ـ ما أضيعها من ليلة!

ومضى نحو مقعده فارتمى عليه وأغمض جفنيه، وجلجلت صرخة أخرى. تنهد الزوج متسائلا:

ـ أما لهذا العذاب من نهاية؟

ـ لا تتوقع خيرا طالما هذا النحس باق!

ولكن الباب فُتح، ومنه مرقت الطبيبة متهللة الوجه. هتف الزوج واقفا:

ـ ماذا وراءك؟

ـ مبارك عليك .

ـ حقّا؟ !

ـ مولود سعيد، حال الوالدة طيبة وإن تكن جد متعبة . .

ـ حمدا لله . .

وشد الصديق على ذراعه قائلا :

ـ مبارك .

على حين قال العجوز دون أن يفتح عينيه :

ـ تهانى يا بنى .

وقالت الطبيبة :

ـ كانت ولادة عسيرة حقّا، لم أصارحك بشىء طبعا ولكنى استعنت بأحدث وسائل التكنولوجيا . .

فسألها الزوج :

ـ وهل من الممكن أن أراه الآن؟

ولكن جرس الباب الخارجى دق فجأة. هرول الزوج إلى الباب وما كاد يفتحه حتى اندفع إلى الداخل أربعة رجال شاهرى المسدسات. أغلقوا الباب وراءهم وصاح أولهم :

ـ ليلزم كل مكانه، لا صوت ولا حركة . .

تقهقر الزوج أمامهم حتى جلس ـ مؤتمرا ـ على مقعده، وإلى جانبهم أجلست الطبيبة. تساءل الزوج :

ـ من أنتم؟ ماذا تريدون؟

ـ عليك أن تجيب لا أن تسأل .

قلب الرجل عينيه فيهم مهددا ولما رأى العجوز ـ وقد فتح عينيه ـ قال له بنبرة جديدة :

ـ معذرة يا عماه عن إزعاجك، ولكنها الضرورة . .

فسأله العجوز :

ـ عم تبحثون يا بنى؟

ـ عن مولود دخل الدنيا فى هذه الساعة .

ـ وهل كنتم تتوقعون مولده؟

ـ أجل . . منذ عام ونحن نرقب مقدمه!

فتساءل الزوج :

ـ ما معنى هذا الكلام الذى لا معنى له؟

فانقض عليه الرجل ولكمه لكمة أذهلته عما حوله وقال :

ـ تأدب، نحن نتبع إشارات جهاز دقيق لا يكذب . .

انقبضوا فى الصمت حتى قالت الطبيبة متسائلة :

ـ وماذا تبغون من مولود لم يكد يرى النور؟

ـ إنه يهدد الأمن والسلام، ونحن لن نعفيك من المسئولية يا دكتورة!

وقال الرجل الثانى :

ـ كما لن نعفى منها الأب والأم . .

وقال الرجل الثالث :

ـ جميع من شهد الولادة مشتركون فى الجريمة!

وقال الرابع :

ـ الجميع عدا عمنا العجوز الذى يعفيه سنه من مشكلات الدنيا .

همس الصديق ـ وهو لا يدرى ـ فى أذنى الطبيبة :

ـ وقعنا تحت رحمة مجانين .

فانقض عليه الرجل الأول ولكمه لكمة شديدة وقال :

ـ ستحاسب على قلة أدبك كما ستحاسب على اشتراكك فى الجريمة .

وقال العجوز موجها خطابه للزوج :

ـ تمالكوا أعصابكم والزموا الهدوء فالموقف أخطر مما تظنون . .

فسأله الزوج :

ـ إنك تعرفهم كما يعرفونك فخبرنا عما يريدون؟

فقال الرجل الأول بصراحة :

ـ نريد المولود .

ـ ماذا ستفعلون به؟

ـ ننقذ الدنيا من شره .

فقال الزوج للعجوز :

ـ إنهم يريدون اغتيال المولود البرىء .

فقال العجوز :

ـ ما عليك إلا الإذعان للقدر !

ـ نتركهم يغتالون وليدا لم يكد يرى النور؟

ـ ما جدوى إهدار دماء جديدة بلا فائدة؟

وصاح الرجل الأول :

ـ حذار أن تبدر حركة عن أحدكم فيهلك فى الحال .

وتقدم الرجل نحو الباب المغلق ، ولكن العجوز قام وهو يقول :

ـ أتقتحمون الحجرة على النساء؟

فتوقف الرجل قائلا :

ـ نحن قوم متحضرون فتصرف أنت يا عمنا . .

مضى العجوز إلى الحجرة ، نقر على الباب مستأذنا ، ثم دفع الباب

ودخل، غاب قليلا ثم رجع حاملا الوليد بين ذراعيه تتبعه الحماة والفتاة الجميلة والدادة فى اضطراب وتساؤل. وقال العجوز للزوج:

ـ الأم مستغرقة فى النوم فاطمئن من هذه الناحية.

ورأت الدادة الرجال المسلحين فهتفت:

ـ اللهم الطف بنا.

وتساءلت الجميلة:

ـ أغراب ومسدسات. ما معنى هذا؟

أما الحماة فقد سألت الزوج بحدة:

ـ من هؤلاء؟

فأجاب بنبرات باكية:

ـ إنهم يريدون الوليد..

ـ ماذا يريدون منه؟

فقال الرجل الأول:

ـ نريد أن ننقذ الدنيا من شره!

فصاحت الدادة:

ـ مجانين.. مجانين.. انظرى إلى أعينهم!

فحرك الرجل مسدسه مهددا وقال:

ـ سنطلق النار لدى أى حماقة ترتكب!

فقالت الحماة مخاطبة الزوج:

ـ لعلهم بعض مدمنى المخدرات من أصحابك؟!

فرفع الزوج يده إلى موضع اللكمة وتأوه فقالت الحماة وهى تزداد قسوة:

ـ أو لعلهم بعض أعدائك الذين تسىء إليهم فى نزواتك لندفع نحن الثمن!

واقترب الرجل الأول من العجوز فألقى على الوليد نظرة، وقال بحقد:

ـ وقعت، أخيرا وقعت، سنريح العالم من شرك!

ووثب الزوج كالمجنون، ولكنه عولج بلكمات كالمطر فتهاوى فوق مقعده. وبسرعة فائقة أجلس الرجال المسلحون الآخرين على مقاعد متقاربة فأوثقوا أيديهم وكمموا أفواههم، ثم وقفوا صفا واحدا وقال أولهم للعجوز:

ـ ضع الشيطان الصغير فوق الخوان.

ثم قال لرجاله:

ـ لدى ابتعاد عمنا أطلقوا النار على الشيطان..

تحرك العجوز فى صمت خانق بين أعين محدقة. وفجأة انتفض الوليد فى لفافته فأزاحها وتجرد عاريا. وبسرعة مذهلة طار كالفراشة، انقض على الرجال الأربعة فلكم كلا منهم لكمة بقبضته الصغيرة، ثم رجع فاستقر فوق يدى العجوز. وقع ذلك بسرعة كسرعة الضوء، ذهل الرجال الأربعة وتجمدوا. سقطت المسدسات من أيديهم. تقوضت قاماتهم فتهاووا على الأرض لا حراك لهم. وخيم الصمت والجمود والرهبة. خيم الصمت والجمود والرهبة حتى تحرك العجوز بالوليد فوضعه على الخوان. وراح يحل أوثقة الرجال والنساء، ثم مضى بالوليد إلى حضن أمه، فلما رجع وجد الجميع واقفين فى ذهول. يتبادلون النظرات ثم يركزونها فوق الرجال الراقدين بلا حراك.

ـ ما هذا؟!

ـ أحق ما رأينا؟

ـ أهو سحر؟

ـ أنحن نيام؟

ـ الوليد! . . أحق أنه هو؟

ـ لولا وجود الرجال الأربعة لمضى الحدث حلما من الأحلام . .

ـ إنه حقيقة، حقيقة مخيفة . .

ـ لنسأل الله اللطف بعقولنا .

وقالت الحماة :

ـ إنه معجزة من معجزات الله القهار!

فسأل الصديق الطبيبة :

ـ ما رأيك يا دكتورة، ألديك تفسير لذلك؟

فقالت الدكتورة بحيرة شديدة :

ـ أحيانا، أعنى فى أحوال نادرة ، عقب آلام معاناة رهيبة . .

ـ ماذا يحدث عقب الآلام والمعاناة؟

ـ ما يشبه المعجزة!

ـ أن ينقلب وليد إلى قوة كونية خارقة؟!

ـ قريب من هذا ما سجلته مذكرات بعض الأطباء فى العصر الفرعونى وفى العصور الوسطى .

وتحول الصديق نحو الرجل العجوز فسأله :

ـ ما رأيك أنت يا عماه؟

فقال العجوز بلا مبالاة بسؤاله :

ـ الأفضل أن نسأل عما يمكن عمله بهذه الجثث!

وهتف أكثر من صوت :

ـ الجثث!!

وانحنت الطبيبة فوق الرجال ففحصتهم ثم قامت وهى تقول :

ـ رباه . . لقد فارقوا الحياة حقّا . .

فصرخ الزوج :

ـ فارقوا الحياة؟!

ـ بكل توكيد .

ـ يجب استدعاء الشرطة فورا .

فسأله الصديق :

ـ وبم نجيب إذا سئلنا عن القاتل؟ أو إذا سئلنا عن أسباب القتل؟!

فقالت الفتاة الجميلة :

ـ يا له من موقف لم يخطر لأحد على بال!

وقال الزوج :

ـ ستوجه التهمة إلينا نحن!

وتساءل الصديق :

ـ أيمكن التخلص من الجثث؟

ـ وكيف نتخلص من جثث أربعة عمالقة؟

فأجاب العجوز متطوعا :

ـ ولكنه لا حل لديكم سواه . .

وتحولت إليه الأعين مستطلعة ومستغيثة معا ، فقال :

ـ طالما أبديت استعدادى لأداء أى خدمة تطلب منى ، وهأنذا أعتبر هذا العمل من اختصاصى . .

وأعرض عنهم متجها نحو الجثث حتى أطل بقامته عليها . مد يده إلى الجثة الأولى . رفعها ثم طرحها على كتفه اليسرى وكأنه يرفع قشة! رفع الجثة الثانية فوضعها فوق الأولى بالسهولة نفسها . كذلك حمل الجثتين الأخريين على كتفه اليمنى كأنه كان يتسلى بلعبة محببة دون عناء ، وكأنه استجد لنفسه شابا أسطوريا بمعجزة . وقال بهدوء :

ـ افتحوا الباب!

ومضى بحمله بأقدام ثابتة وفى غير جهد وفيما يشبه المرح والجميع يتابعونه بأعين ذاهلة. وظلوا فى وقفتهم كالمنومين حتى أفاق الزوج فأقبل على الطبيبة وهو يقول:

ـ أنت وحدك تستطيعين أن تعيدى العقول المتطايرة إلى مستقرها الآمن فى الرءوس.

نافـــذة فى الدور الخامس والثلاثين

مد ساقيه مستسلما لطراوة الفوتيل. شعر بشىء من الجهد فى نهاية نهار حافل بالنشاط. أضاء الخادم العجوز مصابيح البهو وألقى نظرة أخيرة على البار والمائدة الشهية ثم همّ بالذهاب، ولكنه قال له:

ـ أطفىء النور حتى يأتى المدعوون.

فصدع العجوز بالأمر وذهب. أما هو فقد غاب هيكله النحيل فى ظلمة المغيب. ومضى يرنو من خلال النافذة فى الجدار المقابل إلى المقطم وراء النيل والحقول وشرقى المدينة. وقال لنفسه:

ـ عيد ميلاد جديد، سبع شمعات رمزية، ما أكثر الأعوام! وما أقل من بقى من الأصدقاء!

وأغمض عينيه وهو يتمتم:

ـ ترى ما عدد الأرغفة التى التهمتها؟ وعدد الخراف والعجول؟ والأفدنة من الخضراوات والبقول؟ والأمواج من مياه النيل؟ والسعرات الحرارية التى استهلكت فى اللعب والعمل؟

وتثاءب طويلا وهو يقول:

ـ سعيد من يبلغ هذا العمر وهو مرتاح الضمير!

وأسلم للصمت ليسترد حيويته. وأعجبه أن يسبح فى صمت عميق لولا أن تناهى إلى سمعه حفيف ثوب أو تردد أنفاس. فتح عينيه فرأى

فى وسط البهو تقريبا عجوزا مهلهل الثياب أعور حافى القدمين. تساءل :

ـ من؟

وأمعن النظر، ثم قال بدهشة :

ـ جارنا القديم المسكين!

ولم ينبس العجوز بكلمة. فقال الرجل :

ـ ذكريات الصبا التى لا تنسى، كيف صعدت إلى شقتى فى الدور الخامس والثلاثين؟

ولم يتكلم العجوز ولم تند عنه رغبة فى الكلام. فقال :

ـ أدفعتك الحاجة إلى المجىء؟

وانتظر عبثا أن يتكلم ، ثم تساءل :

ـ أتريد كالزمن الأول بعض النقود أو الملابس القديمة؟

تراجع العجوز خطوات. فقال الرجل :

ـ خطرت على بالى مرات فظننتك انتقلت إلى دار البقاء!

ولأول مرة قال العجوز بصوت بارد :

ـ لم يخب ظنك!

ـ حقّا؟!

ـ حقّا!

ـ كأنما جئت تحية لعيد الميلاد.

فقال بصوت غليظ :

ـ عليك اللعنة!

ـ اللعنة؟

ـ وعلى جميع المجرمين!

وتراجع أكثر فاختفى تماما. اختفى قبل أن يطفئ وقدة تساؤلاته. قبل أن يجلو سر غضبه عليه وتنكره لإحسانه. وتساءل:

ـ ماذا يقع فى العالم الآخر من أمور يشق على عقولنا هضمها؟

فجاءه صوت ناعم يقول:

ـ ألا زلت تكلم نفسك كالمجانين؟

وتراءت أمامه فى فستانها البيتى الفضفاض تنضح صحة وشبابا. هتف بخوف:

ـ أنت؟!

ـ دون غيرها وبجميع ذكرياتها..

ـ ذكريات أليمة لم يبرأ قلبى بعد من عذاباتها..

ـ يا للعجب!

ـ وبسببها عافت نفسى الزواج فبقيت أعزب حتى النهاية.

ـ ولكنك لم تفعل إلا أن عشقتنى.

ـ رغم أنك كنت بمنزلة الأم، امرأة أبى.

ـ فى مذهب العشق يجوز كل شىء.

ـ ما زالت الجريمة تنغص علىّ صفوى.

ـ أتسميها جريمة؟

ـ أنت التى أغريتنى!

ـ كلانا أغرى صاحبه..

ـ إنها ذكرى الجحيم فى حياتى..

ـ وهى أسعد ذكرياتى.

ـ يا لك من...

ـ امرأة طيبة كما أنك إنسان طيب..

ـ أهذا يمثل الرأى هناك؟

ـ كيف لم يبلغك؟ . . عيد ميلاد سعيد . .

وتوارت عن ناظريه . تبلبل فكره . رغم ذلك داخله إحساس دافئ بالارتياح . انجابت هموم ثقيلة . وقال لنفسه :

ـ من يدرى فلعلى بالغت أيضا فى محاسبة النفس عن غرق ذلك الشاب المجهول . .

سمع تنهدة عميقة . رأى الشاب يقف عاريا يحملق فى وجهه ويقول :

ـ تقول إنك بالغت؟

فقال بأمل :

ـ بت أعتقد ذلك . .

ـ يا لك من فاجر!

ترامقا طويلا حتى انقبض قلبه . وقال الشاب :

ـ تركتنى أغرق يا نذل . .

ـ لا ذنب علىّ، أنت وحدك المسئول .

ـ غلبنى الموج وخانتنى قواى فاستغثت بك . .

ـ لم أكن أحسن السباحة . .

ـ بل كنت تحسنها بالقدر الكافى لإنقاذى . . ولكنك هربت يا قاتل . .

ـ لا تقل ذلك ، القانون نفسه فى ذلك العهد . .

ـ القانون! إن الغرقى فى ذمة المتفرجين!

ـ حسبت أن ذلك الموقف قد تصور لك فى صورة جديدة . . ؟

ـ ولم يتصور فى صورة جديدة؟

ـ هكذا انقلبت الأحكام فى عالمكم!

ـ لقد انقلبت فى رأسك بحكم الخوف، وإنى نادم على مخاطبتك . .

وغادره على حال من القلق فقد معها توازنه، اضطرب صدره وجاش بالمتناقضات. وقال:

ـ أى الأفعال خير وأيها شر؟ وكيف يهتدى ضميرى فى هذه الغابة المتلاطمة بالغرائب!! آه لو كان أبى حيا!

وإذا بالصوت الذى طال انقطاعه يقول:

ـ أشكر لك حسن ظنك.

غض البصر تجنبا للمواجهة وعقل الخجل لسانه فلم ينطق. وقال الأب بنبرة لم تخل من تهكم:

ـ أراك تستعد للاحتفال بعيد ميلادك!

ولما لم ينبس سأله:

ـ ماذا يمنعك من الكلام؟

فأجاب بصوت متهدج:

ـ الذنب وإنه لكبير!

ـ أما زلت تذكر ذلك؟

ـ وكيف لى بالنسيان؟

ـ ولكنى لم أحضر لإحياء ذكريات تافهة.

فتشجع قائلا:

ـ لقد اختل الميزان وانفرط العقد.

ـ وتروم الاهتداء إلى أساس مكين؟

ـ بكل ما أملك من قوة.

ـ حسن، ركز فكرك جيدا وأجب بأمانة عن ما أسألك عنه.

ـ ستجدنى طوع أمرك يا أبى .

فهتف بإنكار :

ـ لست أباك !

ـ لست أبى ؟ !

ـ وتصورك هذا يقطع بأنك ما زلت تعيش فى عصر حجرى !

ـ ولكنها علاقة حقيقية لا ينكرها أحد .

ـ بل علاقة خاصة تعيقك عن الرؤية الصحيحة .

شعر بأن عليه أن يجاريه لا أن يناقشه فقال :

ـ معذرة عن خطأ وقعت فيه بحسن نية .

ـ أجبنى ، ما أهم حدث وقع لك فى طفولتك ؟

ـ لا أذكر ، لعل طفولتى مرت دون أحداث تستحق الذكر .

ـ إجابة عمياء تنذر بعواقب سخيفة .

ـ الحق أنى . . .

ـ أجبنى ، ما أكبر خطيئة ارتكبتها فى شبابك ؟

استعد ولم يجب ، فقال الرجل :

ـ ما زلت تخجل مما لا يدعو للخجل وهو نذير بأنك ستباهى بما يجدر بك أن تخجل منه . .

ـ آسف . .

ـ أجبنى ، كم شخصا قتلت ؟

ـ لم أقتل أحدا والحمد لله .

ـ ألم يشرع أحد فى قتلك ؟

ـ كلا ، ماذا جعلك تظن بى ذلك ؟

تنهد الأب بصوت مسموع . فقال الرجل :

ـ عشت حياة طيبة . .

ـ طيبة !

ـ لم يشبها سوى أخطاء بسيطة ، مثل ذلك . .

ـ لا يهمنى أن أسمع إلى أخطاء بسيطة . .

ـ وقدمت للمجتمع خدمات لا بأس بها .

ـ لا بأس بها !

ـ ما الذى يهمك حقًا يا أبى ؟

ـ أبى مرة أخرى !

ـ معذرة !

ـ ذهب العمر هباء . .

ـ ماذا تريدنى على أن أفعل ؟

ـ يا لضيعة لقاء ينتهى بالسؤال الذى بدأ به !

ـ لكنك لم تقل شيئا . .

ـ قلت كل شىء . .

واختفى الأب . اختفى دون أن تقع عليه عين الرجل . لكنه شعر بذهابه وشعر بخيبة أمل مريرة .

غير أنها لم تطل . وجد نفسه يميل إلى تصديقه فيما قال من أنه قال كل شىء . ما عليه إلا أن يستعيد أقواله .

ومضى يتذكر . وقال لنفسه :

ـ ليس هذا العيد كالأعياد السابقة ، رأسى يدور ، وينثر فى دورانه ما استقر فيه من أفكار ، كل شىء يتطاير . .

ومضى يتذكر . ولكنه عوجل بحضور الممرضة . تصافحا بمودة . راقبها وهى تعد الحقنة معجبا بشبابها الغض .

خلع الجاكتة فحسر كم القميص مسلما ذراعه . حقنته وهى تقول :

ـ بالشفاء . .

ـ شكرا .

أعادت الحقنة إلى العلبة المعقمة . فقال :

ـ ابقى لتشتركى فى حفل عيد ميلادى .

ـ ولكنى لا أعرف المدعوين .

ـ رجلان وزوجتاهما ، لم يبق سواهم!

ـ ولكنى لم أحضر هدية . .

ـ إنك أنت الهدية . .

فأشارت إلى ثوب العمل المحتشم ، وقالت :

ـ لست مستعدة .

ـ جميعنا فى الحلقة السابعة والثامنة فلتكونى أنت صلتنا الحميمة بالحاضر . .

ترددت بعض الشىء فأمسك بمعصمها قائلا :

ـ لن أدعك تذهبين .

فجلست على المقعد التالى لمقعده وهى تبتسم . سألها :

ـ كل شىء على ما يرام؟

ـ نحمده .

ـ متى تتزوجين؟

ـ فى نهاية الشهر القادم . .

ـ سأفتقدك كثيرا . .

ـ ألم تشبع بعد؟

وضحكت فابتسم ابتسامة لا تخلو من فتور . وجاء المدعوون .

الصديقان وزوجتاهما. صفت الهدايا فوق الخوان. تبودلت القبلات. جلجلت الضحكات. تم التعارف بين السادة والممرضة. ملأ الرجل الكئوس بنفسه رغم مثول الخادم العجوز وراء البار. اختلطت التهانى بالنكات بالأحاديث. اشترك الرجل فى الحديث بنصف عقل. بدا رغم التظاهر جادا أو متفكرا. ولم يجلس كما جلسوا. جعل يذرع المكان حينا، وحينا يقف. وقال له الصديق الأول:

ـ اجلس، وقوفك يرهقنا..

وسألته زوجة الصديق الآخر:

ـ لم لا تجلس؟

فابتسم ابتسامة غامضة وقال:

ـ شىء يحدثنى بأنه عيد الميلاد الأخير.

وأكثر من صوت قال:

ـ فال الله ولا فالك.

فقال بإصرار:

ـ سوف يتبين لكم صدق قولى.

فسأله الصديق الأول:

ـ ماذا بك؟

وقالت زوجته:

ـ لست كالعهد بك.

والتفتت نحو الممرضة متسائلة:

ـ أهو على ما يرام؟

فأجابت الفتاة:

ـ على خير حال.

فقال له الصديق الآخر :

ـ إذن فدع ما لله لله واجلس واهنأ بالعيد .

فقال الرجل :

ـ كلا .

ـ كلا؟!

ـ قررت أن أؤدى واجبى .

ـ أى واجب يا هذا؟

ـ قبل أن تفلت الفرصة إلى الأبد .

ـ إنه الويسكى بلا شك!

ـ لا وقت للهذر .

ـ ولكنها ليلة عيدك .

وقالت زوجة الصديق الآخر :

ـ صديقنا ممتع ، هذا كل ما هنالك .

تحرك الرجل إلى الطرف الآخر من البهو . وضع قدمه على كرسى ، اعتمد بثقله عليها ، وجعل ينظر نحوهم باهتمام ، منقلا بصره من وجه لوجه ، وقال :

ـ الأيام تمر ، وأنتم تتقدمون فى العمر ، لابد من مواجهة صريحة بينكم وبين الأيام .

فقال الصديق الأول ضاحكا وهو يرفع كأسه :

ـ صحتك!

وقالت زوجة الصديق الآخر :

ـ عندى كلمة من الشعر المنثور ، متى يسمح لى بإلقائها؟

فقال الرجل بوجه جاد :

ـ لا محدث غيرى الليلة .

ـ ولكنها ليلة عيدك!

ـ الأخير!

ـ دعنا من هذه السيرة المزعجة!

ـ اسمعوا، لقد شهدت مداولة قضائية، ثم فوضت فى التحقيق والحكم والتنفيذ!

ـ أراهن أن ذلك كله سيتمخض عن فكاهة رائعة!

ـ أشك فى ذلك كل الشك .

فقال الصديق الأول :

ـ أقترح أن نجاريه حتى النهاية .

فقال الصديق الآخر :

ـ عظيم، اعتبرنا ماثلين فى محكمتك!

ـ إنك لكذلك أردتم أم لم تريدوا .

ـ فماذا تروم منا؟

ـ قلت إن الأيام تمر وإن الأعمار تتقدم . ولا بد من مواجهة صريحة .

ـ ولتكن مواجهة صريحة .

فأشار إلى الرجلين وقال :

ـ أجيبانى، كم شخصا قتلتما؟

فضجوا بالضحك . انتظر حتى سكتوا، ثم قال :

ـ أجيبانى، لِم لَم تتعرضا للقتل حتى الآن؟

فضجوا بالضحك مرة أخرى، ولما ساد السكوت قال :

ـ أجيبا، لِم لَم تسجنا على الأقل؟

وقالت زوجة الصديق الآخر :

ـ ألم أقل لكم إنه سيتمخض عن فكاهة رائعة؟
فقال الرجل :
ـ إنى مفوض لقتل من لم يَقتل أو يُقتل أو يُسجن !
فهتف الصديق الآخر :
ـ يا عدو الأخيار !
وقال الصديق الأول :
ـ وأنت خبرنا متى قَتلت أو قُتلت أو سُجنت؟
وقالت زوجة الصديق الأول متضاحكة :
ـ ونحن ألا نستحق القتل أيضا؟
فقال الرجل بخشونة :
ـ نطقت بالحق يا سيدتى !
ـ حقّا؟ !
ـ أنسيت الحب الذى ألف بيننا فى الصبا؟
ولأول مرة تغير الجو . تجهمت الوجوه فى ذهول . وصاح الصديق الأول غاضبا :
ـ أفقدت عقلك وذوقك؟ !
فقال الرجل بتحد :
ـ لا مفر من الحقيقة مهما طال الزمن ، كان حبنا حقيقة ولكن تصادف أنك كنت ابن خالتها فقيل إنك أولى بها ، وإذا بالحقيقة تنهار وتستسلم !
ـ مجنون ، وضح لنا ما غمض من أمرك .
ـ انهارت واستسلمت ، لم تقاوم ، ثم استسلمت مرة أخرى فيما بعد ، هأنذا أصارحك بأننا ـ أنا وهى ـ اشتركنا فى خيانتك زهاء خمسة أعوام !

انتتر الصديق الأول واقفا، وهمّ بالانقضاض على الرجل. ولكن الرجل أخرج مسدسه من جيبه، سدده نحوه، ثم أطلق النار، فخر الصديق صريعا وسط هدير من الصراخ. حتى الخادم العجوز صرخ. وصاح الرجل ويده بالمسدس ترعش:

ـ ليلزم كل مكانه!

انكبت الزوجة فوق زوجها مجهشة فى البكاء. فتساءل ساخرا:

ـ لم تبكين؟ تزوجته على رغمك وخنته بإرادتك، ما أقبح الدموع الجارية فى أخاديد وجهك! أتودين اللحاق به؟

فصاحت فى غضب:

ـ مجرم.. مجرم..

ولكن رصاصة استقرت فى رقبتها قبل أن تكمل كلامها فتهاوت إلى جانب جثة زوجها مضرجة فى دمائها. حملقت فيه الأعين فى فزع أخرس. فقال:

ـ أشهد أن القتل أكبر تحد لقضبان الحياة..

فقال الصديق الآخر بصوت سائب لا ضابط له:

ـ ماذا دهاك أيها الصديق الكريم؟.. أنسيت أننا جئنا للاحتفال بعيد ميلادك؟!

فقال مستردا ذاكرته من صدى الحدث:

ـ أنت أيضا لم تَقتل ولم تُقتل..

فقال الصديق برعب:

ـ كسائر الملايين، وإلا ما بقى على وجهها أحد، ماذا دهاك أيها الصديق الكريم؟

وقالت الزوجة وهى ترتعد:

ـ نحن أصدقاؤك، أنسيت العمر الطويل؟ أنسيت مودة نصف قرن؟!

فحدجها بنظرة احتقار قائلا:

ـ وأنت أيضا، ما تزوجت به إلا من أجل ثروته، أنت أيضا استسلمت لا أحد منكم يحترم المقاومة!

ـ أتحاسبنى على عواطف طفولية اندلعت فى قلبى منذ نصف قرن؟

ـ إنى أعرف عشيقك أيضا!

ـ فليسامحك الله..

وقال له الصديق متوسلا:

ـ دعنا نذهب!

فسأله بازدراء:

ـ لِم لَم تغضب لعرْضك؟

ـ دعنا نذهب بحق صداقة العمر!

ـ لقد بلغنا نقطة لا يجوز التراجع عندها.

ـ أتقتل الأبرياء بالجملة؟

ـ لا يوجد برىء واحد.

أخفت الممرضة وجهها بين يديها على حين هتف الخادم العجوز من وراء البار:

ـ سيدى.. اتق الله العظيم!

فقال الرجل بارتياح:

ـ أحسنت أيها العجوز.

وأطلق الرصاص مرتين فسقط الصديق ثم سقطت زوجته. لم يعد يسمع إلا نحيب الممرضة الحسناء، فنظر الرجل نحوها وتساءل:

ـ لم قبلت الدعوة يا سيئة الحظ؟
فواصلت النحيب دون أن تجيب. فقال:
ـ لعله ضميرك الذى أغراك بقبولها؟
فقالت وهى تنشج:
ـ قبلتها إكراما لك.
فقال متقززا:
ـ ولكنك تبغضيننى كالموت!
ـ أنا؟!
ـ أجل.
ـ لا تظلمنى.
ـ اختلست مرة نظرة إلى المرآة ونحن فى غمرة العناق. فرأيت الاشمئزاز مطبوعا على وجهك كالقطران!
ـ أبدا.. أبدا..
ـ عرضت عليك ذات يوم أن تقبلى الزواج بى، ولكنك اعتذرت..
ـ كنت مخطوبة كما تعلم..
ـ أجل، والحق إنى أكبرتك.
ـ ليس إلا أنى كنت مخطوبة..
ـ ولكنك قبلت أن تكونى خليلتى نظير مكافأة من المال تستعينين بها على إعداد نفسك للزواج..
ـ سيدى..!
ـ لم تقاومى! ماذا يبغض لكم المقاومة؟
ـ لكنك سعدت بقرارى على أى حال!
ـ هذا حق، ولذلك فإنى أحكم عليك بالإعدام.

وثبت الجميلة فى استغاثة فزعة، ولكن الرصاصة عاجلتها فهوت على وجهها. أنزل قدمه من فوق الكرسى وتقدم ببطء وهو يتفحص الجثث. ومد بصره إلى الخادم العجوز وراء البار فتراءى شاحب الوجه بلون الموت. قال له:

ـ أيها العجوز الطيب، ما رأيك فيما شهدت؟

لم يستطع الرجل أن ينبس بكلمة فقال:

ـ بدأت الخدمة فى بيتى شابا وهأنتذا تقف كالغصن الذابل الجاف فى أرذل العمر..

هز العجوز رأسه دون أن ينطق فقال:

ـ كم أسأت إليك، حتى العذاب ذقته أحيانا على يدى..

ـ سيدى..

ـ ولم يخطر لك مرة واحدة أن تهجر بيتى..

ـ رغم كل شىء كنت طيب القلب.

ـ لا تكذب، كم تورطت معى فيما يليق وما لا يليق، كم شهدت هنا ألوانا من الدعارة السافرة!

ـ أفضالك مع ذلك لا يمكن أن تنسى..

ـ ولا مرة واحدة فكرت أن تعاملنى بما أستحق؟

ـ إنى خادمك المطيع يا سيدى.

ـ لذلك أحكم عليك بالإعدام..

حاول العجوز أن يختفى وراء منصة البار، ولكن الرصاصة نفذت فى رأسه. تنهد الرجل بعمق. تنهد بعمق حتى ملأ صوت تنهده البهو..

* * *

شعر بالضوء يشع وراء جفنيه المغلقين ففتح عينيه. رأى الخادم العجوز واقفا والبهو متوهجا بالضوء فنزع نفسه من جلسته المريحة وهو يقول:

ـ جاء المدعوون.

فقال العجوز:

ـ جاءت الممرضة..

ذهب الخادم. دخلت الممرضة مشرقة الوجه. تبادلا ابتسامة عريضة. خلع جاكتته وحسر كم القميص وهى تعد الحقنة. قالت:

ـ عام سعيد.

فقال وهو يسلمها ذراعه:

ـ إنى أدعوك للحفل الصغير.

فقالت وهى تمسح بقطنة مبللة بالكحول موضع الغز:

ـ أود ذلك، ولكنى على موعد مع خطيبى.

ـ إنى أدعوه معك، أرجو أن تبلغيه ذلك..

ـ سيسره أن يلبى دعوتك فهو لا ينسى مساعدتك فى نقله إلى القاهرة، ولكنه ليس على ما يرام..

ـ مريض؟

ـ كلا.. ولكن حالته النفسية ليست على ما يرام..

ـ تلك أعراض تمر، متى تتزوجان؟

ـ قريبا على أى حال.

ـ سأفتقدك كثيرا.

فضحكت قائلة:

ـ حذار، سأبدأ بالزواج حياة جديدة!

ـ يا لك من استغلالية فاتنة، ولكنى لن أنسى السعادة التى حظيت بها على يديك!

ـ أكرر التهنئة.

وذهبت وهو يتبعها عينيه. ثم أجال بصره فى البهو، الأرض والمقاعد والبار ثم تنهد بعمق. ونظر فى الساعة ثم تمتم:

ـ رحلة طويلة حقًا فى أقل من خمس دقائق!

ومضى يذرع البهو، ولكن الانتظار لم يطل فما لبث أن جاء المدعوون رجلان وامرأتان فى الحلقتين الثامنة والسابعة. صفت الهدايا فوق الخوان تبودلت القبلات. اتخذوا مجالسهم ومضى الرجل يملأ الكئوس بنفسه.

ـ لم يبق إلا نحن الخمسة.

ـ ليرحم الله الراحلين.

وقالت زوجة الصديق الأول:

ـ ثمة تنبيه مهم أسوقه حرصا على سهرتنا الغالية.

ـ ألا وهو؟

ـ منع الكلام فى السياسة أو الحرب.

ـ عين الصواب.

ـ إنه يمتص الحيوية، يجعل من السمر حديثا مرهقا، يدفع إلى طريق مسدود، لنرحم أنفسنا هذه الليلة..

ـ أشك فى إمكان تحقيق هذا المطلب البرىء، سنتظاهر بالامتثال، وسنتحدث فى هذا أو ذاك من الموضوعات ثم نجد أنفسنا ونحن لا ندرى فى الجبهة..

ـ وحتى إذا وُفّقنا إلى اختيار موضوع ما فلن نلبث أن نجد الكلام لغوا

لا معنى له ولا طعم، وإننا فى الواقع إنما نهرب من الحديث الوحيد المقضى به علينا، ولن نجد بدّاً فى النهاية من الرجوع إلى الجبهة، وتتشعب الآراء والاحتمالات، وتتطاحن فروض الحرب والسلم، وتمضى الليلة ونحن غائصون فى شرك حفرناه بأيدينا.

فقالت المرأة بإصرار:

ـ إذن فلأنصب من نفسى ملاكا حارسا للسهرة، أطلق صفارة إنذار كلما آنست ميلا نحو الحديث الأبدى.

ـ تجربة لا بأس بها، ولكنى أتنبأ بالفشل من قبل أن تبدأ..

ـ صحتكم.

ـ صحتك.

ـ ولكن ما بال صاحب العيد يبدو شاردا؟

ـ أنا؟!

ـ أجل.. يوجد شىء فى رأسك الكريم..

فضحك قائلا:

ـ الحق أنى حلمت حلما غريبا.

ـ خير إن شاء الله.

ـ ولكن ماذا أقول؟

ـ قل ما رأيت ونحن على تأويل الرؤيا قادرون.

فقال وهو يرمقهم بنظرة غريبة:

ـ رأيت أننى قتلتكم جميعا رميا بالرصاص.

ضجوا جميعا بالضحك..

ـ خير ما فعلت فإننا أصبحنا كالخيل القديمة تُرمى بالرصاص على سبيل الرأفة.

ـ وكنت أقتل وأنا فى غاية من المرح . .

ـ يمكن تفسير الأحلام بأضدادها فمعنى الحلم أن تتمنى لنا طول العمر . .

ـ عظيم .

ـ أما إذا اعتمدنا فى تفسيرنا على العلم ، على فرويد مثلا فسنكشف عن رغبات جنسية مكبوتة لا يحسن الجهر بها . .

ـ ما كان فى الوسع أن أكبتها طيلة ذاك العمر .

ـ صحتك . .

ـ صحتكم .

ـ وحتى النساء؟

ـ وحتى النساء!

ـ يخونك العيش والملح .

ـ حتى الخادم العجوز والممرضة!

ـ لم يكن حلما ، ولكنه كان استمرارا لأحاديث الحرب .

ـ لعله .

ـ ولكن لم تفضلت بقتلنا؟

ـ لم أعد أذكر فسرعان ما تنسى تفاصيل الأحلام .

ـ تذكر السبب فإننا نتوقع أن يكون طريفا . .

ـ لا أظن . .

ـ لا شك فى أننا تحديناك بطريقة ما؟

ـ ربما .

ـ ماذا فعلت بعد أن أجهزت علينا؟

ـ لا أذكر .

ـ ألم تشعر بالندم؟

ـ لا أظن.

ـ اسمح لى أن أقول لك . .

ولكن الخادم العجوز دخل ليعلن عن حضور الممرضة وخطيبها. وذهب فجاءت الممرضة يتبعها خطيبها. وتم التعارف على يد الرجل. واتخذ القادمان مجلسيهما متجاورين والشاب يبتسم ابتسامة ودود ربما ليخفى كآبة لم ينجح فى إخفائها. وقدم لهما الرجل كأسين وهو يقول:

ـ صحتكما . .

وقال لهما الصديق الأول:

ـ نشكركما على حضوركما فإن مجلسنا يحتاج إلى دم جديد . .

فقال الرجل:

ـ إنها شابة ممتازة وهو شاب ممتاز، ولكنه يبدو على غير ما يرام.

فقال الشاب:

ـ إنى على خير حال يا سيدى.

ـ حقّا؟! . . ما رأيك يا آنسة؟

فقالت بشىء من الحزن:

ـ إنه كما تقول يا سيدى، ولكن لا يجوز أن نكدر صفو الحفل بهمومنا.

وسأل الصديق الثانى:

ـ أهو مريض؟

ـ كلا يا سيدى، ولكن ينتابه من آن لآن شعور مجهول بالكآبة . .

ـ كيف تنتاب الكآبة من أنت خطيبته؟

فقال الشاب محتجا:

ـ إنى بخير . .

فقال الرجل :

ـ لست كما تقول . .

ـ سيدى . . لا يجوز أن نكدر صفوكم . .

ـ صارحنى يا بنى فإنى بمنزلة الوالد . .

وقالت زوجة الصديق الأول :

ـ لعلنا نجد فى حديثك ملاذا من حديث آخر يطاردنا . .

وتساءل الصديق الثانى :

ـ ما علة كآبتك؟

فأجابت الممرضة :

ـ بلا سبب . .

وتساءل الصديق الأول :

ـ لعله خلاف فى العمل؟

فأجاب الشاب :

ـ لا شىء ألبتة . .

ـ أو بوادر قلق مما يخطر للمحبين؟

ـ لا شىء ألبتة يا سيدى .

ولم تملك الممرضة أن قالت :

ـ قال لى ونحن فى الطريق إلى هنا إن الانتحار فكرة طيبة!

فهتف الشاب :

ـ أتعيدين كلمة رددتها بلا قصد ولا معنى؟

ـ لقد خفت خوفا حقيقيا . .

ـ ما أغرب أطوارك!

ـ اعذرنى . .

ـ إننا نفسد الجو . .

فقال الرجل :

ـ لا داعى للحرج يا بنى، فأنا نفسى حلمت منذ حين بأنى قتلت جميع المدعوين بما فيهم خطيبتك، وحتى خادمى العجوز . .

وضج المدعوون بالضحك، حتى الشاب ابتسم، وقال الرجل :

ـ اشرب كأسك، اطرد عنك الحرج، وصدقنى فإنى أرحب بك ترحيبا خاصا وأشعر بأنك تشاركنى فى موقفى الغريب . .

والتفت الرجل نحو أصحابه وقال :

ـ معذرة فإنى أتوهم أن لدى كلمة طيبة يحسن أن تقال لصديقنا الشاب، فاستمتعوا بوقتكم دون تأجيل . .

فقال الصديق الأول :

ـ إنى أتوقع حديثا طريفا جديرا بالمتابعة وبخاصة وأنه لا يحرم الأكل أو يمنع الشرب!

فنظر الرجل نحو الممرضة وقال :

ـ أنت مسئولة، كيف تركته يغرق فى الكآبة؟

فقالت الممرضة :

ـ أعتقد أننا سعداء، أو هذا ما اعتقدته . .

فسأل الرجل الشاب :

ـ لم أنت كئيب؟

ـ إنها تبالغ يا سيدى .

فقالت الممرضة :

ـ لم أبالغ قط . .

فقال الرجل :

ـ نحن فى الدور الخامس والثلاثين ، وقد لقننى ذلك حكمة . .

فسأله الصديق الثانى ضاحكا :

ـ ألذلك علاقة بجريمة قتلنا؟

وأخذ الرجل الشاب من يده ومضى به إلى النافذة ، ثم قال :

ـ من هذا الموضع المرتفع ترى أكثر من نيل يجرى فى القاهرة . .

فقال الشاب :

ـ منظر عجيب حقّا ، ولا شك فى أنه فى أثناء النار أعجب . .

ـ من هنا ترى الحدائق كأنها أشكال هندسية دقيقة مرسومة على سطح من الورق . .

ـ ربما . . ولكن أرجو ألا تصدق أنى فكرت حقّا فى الانتحار . .

ـ السيارات لعب أطفال ، الناس فئران . أما الجبل والمساكن فبناء هائل متصل التكوين تنبثق منه هنا وهناك قباب ومآذن ، الطرقات تختفى تماما ، كما يختفى تفرد الناس وتميزها ولا أثر يظهر لهمومها ومشاكلها وأفراحها وأتراحها . .

ـ ما أعجب ذلك كله!

ـ ما أجمل أن نتعامل مع الشمس والهواء والعلو! . . أيضايقك حديثى؟

ـ أبدا ، أخشى أن يضايقك وجودى . .

وقالت زوجة الصديق الأول :

ـ ارفع صوتك قليلا يا عزيزى فنحن أيضا فى حاجة إلى كلمتك الطيبة . .

فقال الرجل للشاب :

ـ إنى سعيد بك، ولعلى أستطيع أن أقنعك كما أقنعت نفسى بالحياة فوق كل شىء!

ـ فوق كل شىء؟

ـ أعنى أن تنظر إلى همومك من فوق كما تنظر إلى المدينة تحتك فتراها أشكالا مجردة لا فاعلية لها. .

فهتف الصديق الثانى:

ـ أحسنت أيها الحكيم. .

ولكن الشاب قال:

ـ هذه خاطرة قد تخطر أحيانا للمثقل بالهموم للراحة، ولكن لا موضع لها بين الحقائق.

فقالت زوجة الصديق الثانى مخاطبة الشاب:

ـ إنها وصفة مجربة فلا تستهن بها يا عزيزى.

وقال الرجل:

ـ أجل. . لا تستهن بها، ما أجمل أن نحيا فوق كل شىء!

ـ ولكننا خلقنا لنعيش تحت.

ـ ألا تستطيع أن ترتفع؟

ـ لا أظن ، الملايين تعانى تحتنا.

ـ لا يغير ذلك من جوهر الحقيقة. .

ـ أشك فى ذلك يا سيدى. .

فأشار الرجل إلى المدينة المرصعة بالأضواء وقال:

ـ هنا وهناك، تقع أحداث، تنشأ علاقات، تتفجر خصومات، أما بالنسبة للراصد من هذه النافذة فلا يحدث شىء على الإطلاق!

ـ لعله ضعف رؤية يا سيدى!

فضج البهو بالضحك، وضحك الرجل أيضا وقال:

ـ الشباب مرحلة خطيرة، يأنف من المهادنة ويسخر من الحكمة فليس أمامه إلا إحدى طريقين فإما الانتحار أو الثورة..

وتساءل الصديق الأول:

ـ والحب، أليس طريقا أيضا؟

ولكن الشاب تساءل:

ـ الانتحار أو الثورة؟

ـ وكلاهما شيء واحد للراصد من النافذة.

ـ النافذة؟!

ـ نبرتك ساخرة! خبرني بصدق عما جاء بك إلى هنا؟

ـ المشاركة في عيد ميلادك..

ـ وماذا أيضا؟

ـ ربما رغبت أيضا في شيء من الراحة.

ـ علامة سيئة.

ـ سيئة؟!

ـ تقطع بأنك غارق في الهموم.

ـ لا تخلو حياة من ذلك.

ـ المهم هو موقفنا منها، أليس كذلك؟

ـ أن نواصل الصراع.

ـ أرجو ألا تردد أمامي شعارات محفوظة.

ـ لا أخجل من ترديد الشعارات إذا كانت مجدية.

ـ وأنا رجل مجرب، وقد حققت لنفسي نصرا على الدنيا، ومن واجبي أن أفضي بالسر لمن هو في حاجة إليه.

ـ أشكرك . .

ـ ألا تصدقنى؟

ـ إنى متلهف على معرفة السر .

وقال أكثر من صوت :

ـ ونحن متلهفون أيضا .

فقال الرجل :

ـ فى الأصل كانت الهموم .

ـ فى الأصل؟

ـ بدأت التجربة والهموم تقصم ظهرى .

ـ أى هموم من فضلك؟

ـ لا أهمية لذلك ، الفراق . . العقوق . . الدنس . . أشجان الوطن . . زلزال فى يوغسلافيا ، لا تهتم بالأسماء ، كانت الهموم قد قصمت ظهرى .

ـ وبعد؟

ـ استولى علىّ الإعياء والإرهاق ، وذات يوم وجدتنى أطل على المدينة من هذه النافذة ، عند ذاك ألهمت الحقيقة دفعة واحدة . .

ـ الحقيقة؟

ـ وهى أن الهموم لا وجود لها .

ـ أين ذهبت؟

ـ لم أر إلا مدينة مجردة .

ـ المدينة نفسها تختفى إذا ارتفعت درجة مناسبة .

ـ مدينة مجردة ولا أثر للهموم .

ـ محض خيال .

ـ أبدا .

ـ الواقع أن الهموم تستقر فى أعماق نفوسنا .

ـ ولكنها تتلاشى إذا نظرت من عل .

ـ مطلب مستحيل .

ـ ولكنى حققته وانتصرت . .

ـ أتعنى أنه لم يعد يحزنك شىء؟

ـ بلى . .

ـ هذا يعنى أنك لم تعد من البشر .

ـ أكرر التحذير من ترديد الشعارات .

ـ ولكنها الحقيقة .

ـ لا حقيقة إلا تجربتى الظافرة .

ـ تخيل ـ لا سمح الله ـ أنك فقدت أعز ما تملك .

ـ جربت أفظع من ذلك ، أتحداك أن تميز من موقفك هذا بين القبر والبيت . .

ـ ذاك عزاء عقلى لا شأن له بالأعصاب .

ـ الأعصاب تذعن فى النهاية للنافذة .

ـ لا أصدق . .

فقالت زوجة الصديق الثانى :

ـ يجب أن تصدقه .

فقال الشاب للرجل :

ـ إنه يعنى لو صح أنك لم تعد حيا .

ـ أو أننى أحيا فوق قمة الحياة .

ـ لعلك لم تعرف ضراوة الحياة الحقيقية .

ـ عجنت بها وخبزت .
ـ إذن فأنت أسعد رجل فى العالم .
ـ نحن نتحدث عن الحكمة لا السعادة .
ـ قد تكون حكيما ولكنك ـ ومعذرة ـ لست حيا .
ـ ما زالت أنفاسى تتردد .
ـ حكمتك خليقة بقتل بواعث الحياة الحقيقية .
ـ ها قد عدنا إلى الشعارات .
ـ بقتل التقدم .
ـ لم أخل يوما بواجب .
ـ ولمَ تؤدى أى واجب؟
ـ لأَننى حى ولأنه واجب!
ـ إنك تطرح علينا لغزا؟
ـ بدأت تفهمنى . .
ـ ولكن حديثك يخاصم الواقع ويبدو معقدا غير مفهوم .
ـ قولك هذا يمكن أن يصدق على أى شىء فى الحياة .
ـ يؤسفنى أننى لا أستطيع الإفادة من حكمتك .
ـ أعترف لك بأننى قلقت عندما وقع بصرى عليك .
ـ لم؟
ـ شىء حدثنى بأنك مقدم على شىء خطير!
ـ أى شىء هذا؟
ـ أصارحك بأن خاطر الانتحار خطر لى .
ـ فكرة بعيدة عن الواقع بُعْد هذه النافذة عن الأرض .
ـ ولذلك أطلعتك على السر الذى يقتل فكرة الانتحار .

ـ شكرا لا حاجة بى إليه، ثم إن لى وسائلى الخاصة .

ـ عظيم . . عد إلى مجلسك واشرب .

وتأهب الجميع لشتى التعليقات . أما الرجل فلم يبرح مكانه أمام النافذة . ثم صعد فوق مقعد قريب .

أشاعت حركته الدهشة فتساءل الصديق الأول :

ـ أتنوى إلقاء خطبة؟

من موقفه فوق المقعد انتقل بخفة لا تناسب سنه إلى حافة النافذة فوقف عليها مستندا بيديه إلى ضلعيها . وقف الجميع فى ذهول وصاح أكثر من صوت :

ـ ماذا تفعل؟! . . احترس . .

فى اللحظة التالية رأوه وهو يرمى بنفسه فى الفضاء فيختفى بسرعة خاطفة مخلفا وراءه صرخة محشرجة كالعواء . .

أعمال نجيب محفوظ

١ -	مصر القديمة	ترجمة	١٩٣٢
٢ -	همس الجنون	مجموعة قصصية	١٩٣٨
٣ -	عبث الأقدار	رواية تاريخية	١٩٣٩
٤ -	رادوبيس	رواية تاريخية	١٩٤٣
٥ -	كفاح طيبة	رواية تاريخية	١٩٤٤
٦ -	القاهرة الجديدة	رواية	١٩٤٥
٧ -	خان الخليلى	رواية	١٩٤٦
٨ -	زقاق المدق	رواية	١٩٤٧
٩ -	السراب	رواية	١٩٤٨
١٠ -	بداية ونهاية	رواية	١٩٤٩
١١ -	بين القصرين	رواية	١٩٥٦
١٢ -	قصر الشوق	رواية	١٩٥٧
١٣ -	السكرية	رواية	١٩٥٧
١٤ -	اللص والكلاب	رواية	١٩٦١
١٥ -	السمان والخريف	رواية	١٩٦٢
١٦ -	دنيا الله	مجموعة قصصية	١٩٦٢
١٧ -	الطريق	رواية	١٩٦٤

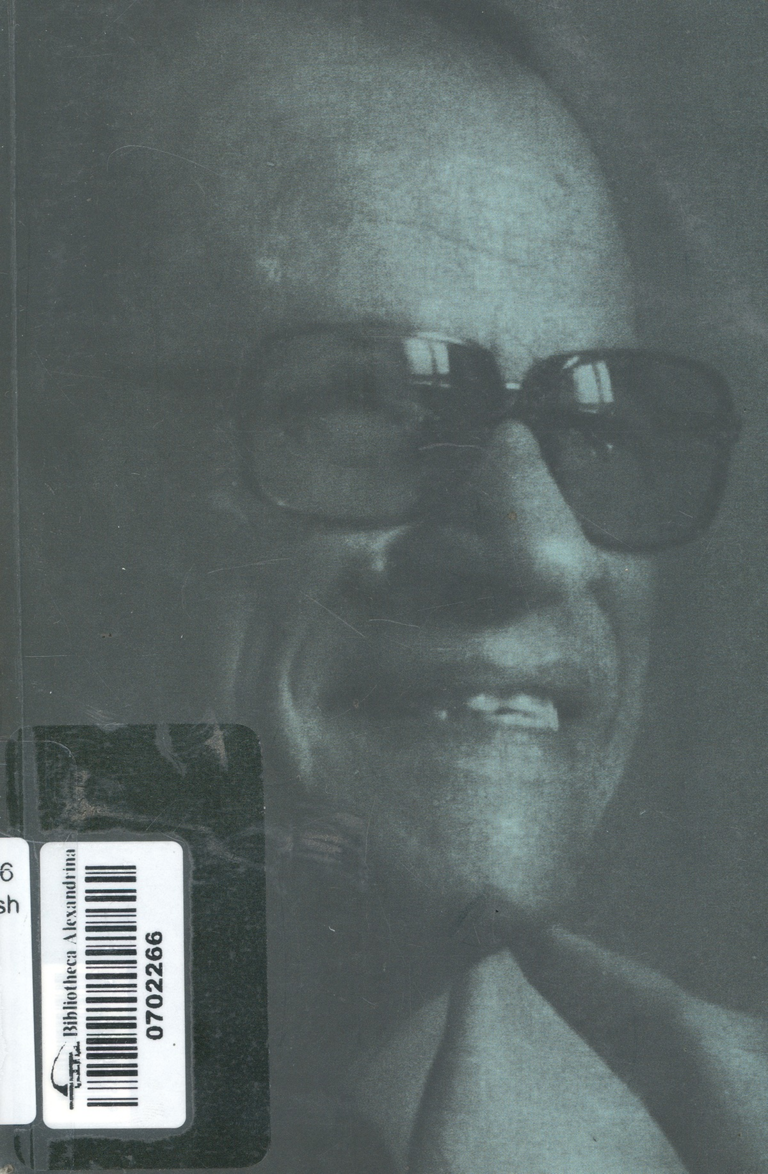
١٨ ـ	بيت سيئ السمعة	مجموعة قصصية	١٩٦٥
١٩ ـ	الشحاذ	رواية	١٩٦٥
٢٠ ـ	ثرثرة فوق النيل	رواية	١٩٦٦
٢١ ـ	ميرامار	رواية	١٩٦٧
٢٢ ـ	أولاد حارتنا	رواية	١٩٦٧
٢٣ ـ	خمارة القط الأسود	مجموعة قصصية	١٩٦٩
٢٤ ـ	تحت المظلة	مجموعة قصصية	١٩٦٩
٢٥ ـ	حكاية بلا بداية ولا نهاية	مجموعة قصصية	١٩٧١
٢٦ ـ	شهر العسل	مجموعة قصصية	١٩٧١
٢٧ ـ	المرايا	رواية	١٩٧٢
٢٨ ـ	الحب تحت المطر	رواية	١٩٧٣
٢٩ ـ	الجريمة	مجموعة قصصية	١٩٧٣
٣٠ ـ	الكرنك	رواية	١٩٧٤
٣١ ـ	حكايات حارتنا	رواية	١٩٧٥
٣٢ ـ	قلب الليل	رواية	١٩٧٥
٣٣ ـ	حضرة المحترم	رواية	١٩٧٥
٣٤ ـ	الحرافيش	رواية	١٩٧٧
٣٥ ـ	الحب فوق هضبة الهرم	مجموعة قصصية	١٩٧٩
٣٦ ـ	الشيطان يعظ	مجموعة قصصية	١٩٧٩
٣٧ ـ	عصر الحب	رواية	١٩٨٠
٣٨ ـ	أفراح القبة	رواية	١٩٨١
٣٩ ـ	ليالى ألف ليلة	رواية	١٩٨٢

٤٠ ـ	رأيت فيما يرى النائم	مجموعة قصصية	١٩٨٢
٤١ ـ	الباقى من الزمن ساعة	روايـــة	١٩٨٢
٤٢ ـ	أمام العرش (حوار بين الحكام)	روايـــة	١٩٨٣
٤٣ ـ	رحلة ابن فطومة	روايـــة	١٩٨٣
٤٤ ـ	التنظيـم السـرى	مجموعة قصصية	١٩٨٤
٤٥ ـ	العائش فى الحقيقة	روايـــة	١٩٨٥
٤٦ ـ	يوم قتل الزعيم	روايـــة	١٩٨٥
٤٧ ـ	حديث الصباح والمساء	روايـــة	١٩٨٧
٤٨ ـ	صبـاح الـورد	مجموعة قصصية	١٩٨٧
٤٩ ـ	قشـــتمر	روايـــة	١٩٨٨
٥٠ ـ	الفجر الكاذب	مجموعة قصصية	١٩٨٨
٥١ ـ	أصداء السيرة الذاتية	مجموعة قصصية	١٩٩٥
٥٢ ـ	القـرار الأخيـر	مجموعة قصصية	١٩٩٦
٥٣ ـ	صـدى النسيان	مجموعة قصصية	١٩٩٩
٥٤ ـ	فتـوة العطـوف	مجموعة قصصية	٢٠٠١
٥٥ ـ	أحـلام فترة النقاهة	مجموعة قصصية	٢٠٠٤

رقم الإيداع ١٠٢٢٧ / ٢٠٠٦
الترقيم الدولى 2 - 1607 - 09 - 977

مطابع الشروق

القاهرة: ٨ شارع سيبويه المصرى ـ ت: ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت: ص.ب: ٨٠٦٤ ـ هاتف: ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٢١٣ ـ فاكس: ٨١٧٧٦٥(٠١)


Bibliotheca Alexandrina
07022266